(١٢)

صفوة التفاسير

القسم الثاني عشر

تفسير السور الكريمة

الروم - لقمان - السجدة - الأحزاب

تأليف

محمد علي الصابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة أم القرى - مكة المكرمة

طبع على نفقة المحسن الكبير

معالي السيد حسن عباس الشربتلي

رحمه الله تعالى

يوزع مجاناً ولا يباع

دار القرآن الكريم

بيروت

اهداءات ٢٠٠١

الاستاذ / حسنى رياض

صفوة التفاسير

تفسير للقرآن الكريم، جامع بين المأثور والمعقول، مستمد من أوثق كتب التفسير
بأسلوب ميسر، وتنظيم حديث، مع العناية بالوجوه البيانية واللغوية

القسم الثاني عشر

تفسير السور الكريمة

الروم - لقمان - السجدة - الأحزاب

تأليف

محمد علي الصابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة أم القرى - مكة المكرمة

طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير

معالي السيد حسن عباس الشربتلي

وجعله وقفاً لله تعالى

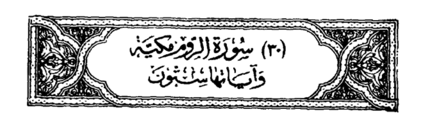
يوزع مجاناً ولا يُباع

دار القرآن الكريم

بيروت

الطبعة الأولى
١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م

شركة الطباعة العربية السعودية المحدودة، العمارية، الرياض



(٣٠) سورة الروم مكية وآياتها ستون

بين يدي السورة

* سورة الروم مكية ، وأهدافها نفس أهداف السور المكية ، التي تعالج قضايا العقيدة الإسلامية في إطارها العام وميدانها الفسيح « الإيمان بالوحدانية ، وبالرسالة ، وبالبعث والجزاء » .

* ابتدأت السورة الكريمة بالتنبؤ عن حدثٍ غيبي هام ، أخبر عنه القرآن الكريم قبل حدوثه ، ألا وهو انتصار الروم على الفرس في الحرب التي ستقع قريباً بينهما ، وقد حدث كما أخبر عنه القرآن ، وبذلك تحققت النبوءة ، وذلك من أظهر الدلائل على صدق محمد ﷺ فيما جاء به من الوحي ، ومن أعظم معجزات القرآن .

* ثم تحدثت السورة عن حقيقة المعركة بين حزب الرحمن ، وحزب الشيطان ، وأنها معركة قديمة قدم هذه الحياة ، فالحرب لا تهدأ ما دام هناك حقٌ وباطل ، وخير وشرٌ ، وما دام الشيطان يحشد أعوانه وأنصاره لإطفاء نور الله ، ومحاربة دعوة الرسل الكرام ، وقد ساقت الآيات دلائل وشواهد على انتصار الحق على الباطل ، في شتّى العصور والدهور ، وتلك هي سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

* ثم تناولت السورة الحديث عن الساعة والقيامة ، وعن المصير المشئوم لأهل الكفر والضلال في ذلك اليوم العصيب ، حيث يكون المؤمنون في روضاتٍ يُحبرون ، ويكون المجرمون في العذاب محضرين ، وتلك نهاية المطاف للأبرار والفجار ، والعاقبة المؤكدة للمحسنين والمجرمين .

* وتناولت السورة بعد ذلك بعض المشاهد الكونية ، والدلائل الغيبية ، الناطقة بقدرة الله ووحدانيته لإقامة البرهان على عظمة الواحد الديان ، الذي تخضع له الرقاب ، وتعنو له الوجوه ، وضربت بعض الأمثلة للتفريق والتمييز بين من يعبد الرحمن ، وبين من يعبد الأوثان .

* وختمت السورة بالحديث عن كفار قريش ، إذ لم تنفعهم الآيات والنُّذر ومهما رأوا من الآيات الباهرة ، والبراهين الساطعة ، لا يعتبرون ولا يتعظون ، لأنهم كالموتى لا يسمعون ولا يبصرون ، وكلُّ ذلك بقصد التسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه من أذى المشركين ، والصبر حتى يأتي النصر .

التسمية : سميت « سورة الروم » لذكر تلك المعجزة الباهرة ، التي تدل على صدق أنباء

القرآن العظيم ﴿الٓمٓ * غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين﴾ وتلك هي بعض معجزات القرآن .

قال الله تعالى : ﴿الٓمٓ . غلبت الروم في أدنى الأرض . . إلى . .وكذلك تُخرجون﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (١٩) .

اللغــــة : ﴿يغلبون﴾ يهزمون ويقهرون ﴿أثاروا الأرض﴾ حرثوها وقلبوها للزراعة ﴿السُّوءى﴾ تأنيث الأسوء وهو الأقبح كما أن الحُسنى تأنيث الأحسن ، والسُّوءى : العقوبة المتناهية في السوء ﴿يُحبرون﴾ يُسرون يقال : حبره إذا سرَّه سروراً تهلَّل له وجهه وظهر عليه أثره قال الجوهري : الحبور : السرور ، ويُحبَرون : يُنعمون ويُسرون ﴿عشياً﴾ العشي : من صلاة المغرب إلى العتمة ﴿تُظهرون﴾ تدخلون وقت الظهيرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾

التفسير : ﴿الٓمٓ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن[١] ﴿غلبت الروم في أدنى الأرض﴾ أي هُزم جيش الروم في أقرب أرضهم إلى فارس ﴿وهم من بعد غَلَبهم سيغلبون﴾ أي وهم من بعد انهزامهم وغلبة فارس لهم سيغلبون الفرس وينتصرون عليهم ﴿في بضع سنين﴾ أي في فترة لا تتجاوز بضعة أعوام ، والبضع : ما بين الثلاث إلى التسع قال المفسرون: كان بين فارس والروم حربٌ، فغلبت فارس الروم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه فشقَّ ذلك عليهم، وفرح المشركون بذلك لأن أهل فارس كانوا مجوساً ولم يكن لهم كتاب ، والرومُ أصحاب كتاب فقال المشركون لأصحاب رسول الله ﷺ إنكم أهل كتاب ، والروم أهل كتاب ، ونحن أميون ، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم ، فلنظهرنَّ عليكم فقال أبو بكر : لا يقرُّ الله أعينكم فأنزل الله ﴿وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين﴾ وقد التقى الجيشان في السنة السابعة من الحرب ، وغلبت الرومُ فارس وهزمتهم ، وفرح المسلمون بذلك قال أبو السعود : وهذه الآياتُ من البينات الباهرة ، الشاهدة بصحة النبوة ، وكون القرآن من عند الله عز وجل حيث أخبر عن الغيب الذي لا يعلمه إلا العليم الخبير ، ووقع كما أخبر[٢] ، وقال البيضاوي : والآية من دلائل النبوة لأنها إخبارٌ عن الغيب[٣] ﴿لله الأمر من قبل ومن بعد﴾ أي للّه عز وجل الأمر أولاً وآخراً ، من قبل الغلبة ومن بعد الغلبة ، فكل ذلك بأمر الله وإرادته ، ليس شيء منهما إلا بقضائه قال ابن الجوزي : المعنى إن غلبة الغالب ، وخذلان المغلوب ، بأمر الله وقضائه[٤] ﴿ويومئذٍ يفرح المؤمنون

(١) انظر ما كتبناه حول الحروف المقطعة في أول سورة البقرة من كتابنا هذا . (٢) أبو السعود ٤/ ١٧٦ . (٣) البيضاوي ٢/ ١٠٣ .
(٤) زاد المسير ٦/ ٢٨٨ .

بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ۝ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ

بنصر الله﴾ أي ويوم يهزم الروم الفرس ويتغلبون عليهم ، ويحل ما وعده الله من غلبتهم يفرح المؤمنون بنصر الله لأهل الكتاب على المجوس ، لأن أهل الكتاب أقرب الى المؤمنين من المجوس ، وقد صادف ذلك اليوم يوم غزوة بدر قال ابن عباس : كان يوم بدر هزيمة عبدة الأوثان ، وعبدة النيران ﴿ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم﴾ أي ينصر من يشاء من عباده ، وهو العزيز بانتقامه من أعدائه ، الرحيمُ بأوليائه وأحبابه ﴿وعْد الله لا يخلف الله وعده﴾ أي ذلك وعدٌ مؤكد وعد الله به فلا يمكن أن يتخلف ، لأن وعده حق وكلامه صدق ﴿ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي لا يعلمون ذلك لجهلهم وعدم تفكرهم ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا﴾ أي يعلمون أمور الدنيا ومصالحها وما يحتاجون إليه فيها من أمور الحياة كالزراعة والتجارة والبناء ونحو ذلك قال ابن عباس : يعلمون أمر معايشهم متى يزرعون ، ومتى يحصدون ، وكيف يغرسون ، وكيف يبنون[١] ﴿وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ أي وهم عميٌ عن أمر الآخرة ، ساهون غافلون عن التفكر فيها والعمل لها قال الإمام الفخر : ومعنى الآية أن علمهم منحصرٌ في الدنيا ، وهم مع ذلك لا يعلمون الدنيا كما هي وإنما يعلمون ظاهرها ، وهي ملاذها وملاعبها ، ولا يعلمون باطنها وهي مضارُّها ومتاعبها ، ويعلمون وجودها الظاهر ولا يعلمون فناءها وهم عن الآخرة غافلون[٢] ، ولعل في التعبير بقوله ﴿ظاهراً﴾ إشارة الى أنهم عرفوا القشور ، ولم يعرفوا اللباب فكأن علومهم إنما هي علوم البهائم ﴿أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق اللهُ السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجلٍ مسمّى﴾ أي أولم يتفكروا بعقولهم فيعلموا أن الله العظيم الجليل ما خلق السموات والأرض عبثاً ، وإنما خلقهما بالحكمة البالغة لإقامة الحق لوقتٍ ينتهيان إليه وهو يوم القيامة ؟ قال القرطبي : وفي هذا تنبيه على الفناء ، وعلى أن لكل مخلوقٍ أجلاً ، وعلى ثواب المحسن وعقاب المسيء[٣] ﴿وإنَّ كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون﴾ أي وأكثر الناس منكرون جاحدون للبعث والجزاء ﴿أولم يسيروا في الأرضِ فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم﴾ أي أولم يسافروا فينظروا مصارع الأمم قبلهم كيف أُهلكوا بتكذيبهم رسلهم فيعتبروا ! ! ﴿كانوا أشدَّ منهم قوة﴾ أي كانوا أقوى منهم أجساداً ، وأكثر أموالاً وأولاداً ﴿وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مّما عمروها﴾ أي وحرثوا الأرضَ للزراعة ، وحفروها لاستخراج المعادن ، وعمروها بالأبنية المشيدة ، والصناعات الفريدة أكثر مما

---

(١) القرطبي ١٤/٧ . (٢) التفسير الكبير ٢٥/٩٧ . (٣) القرطبي ١٤/٩ .

أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَانَ

عمرها هؤلاء قال البيضاوي : وفي الآية تهكم بأهل مكة من حيث إنهم مغترون بالدنيا ، مفتخرون بها ، وهم أضعف حالاً فيها ، إذ مدار أمرها على السعة في البلاد ، والتسلط على العباد ، والتصرف في أقطار الأرض بأنواع العمارة ، وهم ضعفاء ملجئون الى دار لا نفع فيها[1] ﴿وجاءتهم رسلهم بالبيِّنات﴾ أي وجاءتهم الرسل بالمعجزات الواضحات والآيات البينات فكذبوهم ﴿فما كان الله ليظلمهم﴾ أي فما كان الله ليهلكهم بغير جُرم ﴿ولكنْ كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر والتكذيب فاستحقوا الهلاك والدمار ﴿ثم كان عاقبةَ الذين أساءوا السُّوأى﴾ أي ثم كان عاقبة المجرمين العقوبة التي هي أسوأ العقوبات وهي نار جهنم ﴿أن كذَّبوا بآيات اللهِ وكانوا بها يستهزئون﴾ أي لأجل أنهم كذبوا بآياتنا المنزلة على رسلنا واستهزءوا بها ﴿الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ أي الله جل وعلا بقدرته ينشىء خلق الناس ثم يعيد خلقهم بعد موتهم ﴿ثم إليه تُرجعون﴾ أي ثم إليه مرجعكم للحساب والجزاء ﴿ويوم تقوم السَّاعةُ يبلس المجرمون﴾ أي ويوم تقوم القيامة ويُحْشر الناس للحساب يسكت المجرمون وتنقطع حجتهم ، فلا يستطيعون أن ينبسوا ببنت شفة قال ابن عباس : ﴿يبلس المجرمون﴾ ييأس المجرمون ، وقال مجاهد : يفتضح المجرمون قال القرطبي : والمعروف في اللغة : أبلس الرجل إذا سكت وانقطعت حجته[2] ﴿ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء﴾ أي ولم يكن لهم من الأصنام التي عبدوها شفعاء يشفعون لهم ﴿وكانوا بشركائهم كافرين﴾ أي تبرءوا منها وتبرأت منهم ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذٍ يتفرقون﴾ كرر لفظ قيام الساعة للتهويل والتخويف لأن قيام الساعة أمر هائل أي ويوم تقوم القيامة يومئذٍ يتفرق المؤمنون والكافرون ، ويصبحون فريقين : فريقٌ في الجنة ، وفريقٌ في السعير ، ولهذا قال ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي فأما المؤمنون المتقون الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فهم في روضةٍ يُحبرون﴾ أي فهم في رياض الجنة يُسرون وينعمون ﴿وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة﴾ أي وأما الذين جحدوا بالقرآن وكذبوا بالبعث بعد الموت ﴿فأولئك في العذاب محضرون﴾ أي فأولئك في عذاب جهنم مقيمون على الدوام ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون﴾ أي سبحوا الله ونزّهوه عما لا يليق به من صفات النقص ، حين تدخلون

(١) البيضاوي ٢/١٠٣ . (٢) القرطبي ١٤/ ١٠ .

﴿اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾

في المساء ، وحين تدخلون في الصباح ﴿وله الحمد في السمواتِ والأرضِ وعشياً وحين تُظهرون﴾ أي وهو جل وعلا المحمود في السموات والأرض قال ابن عباس : يحمده أهل السمواتِ وأهلُ الأرض ويُصلون له[1] ، قال المفسرون : ﴿وله الحمد في السموات والأرض﴾ جملة اعتراضية وأصل الكلام : ﴿فسبحان الله حين تُمسون وحين تصبحون * وعشياً وحين تُظهرون﴾ والحكمة في ذلك الإشارة الى أن التوفيق للعبادة نعمةٌ ينبغي أن يحمد عليها ، والعشي : من صلاة المغرب الى العتمة ، ﴿وتظهرون﴾ أي تدخلون وقت الظهر ﴿يُخرج الحيَّ من الميت ، ويُخرج الميت من الحي﴾ أي يخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، والنبات من الحب ، والحبَّ من النبات ، والحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ﴿ويُحْيي الأرض بعد موتها﴾ أي ويحيي الأرض بالنبات بعد يبسها وجدبها ﴿وكذلك تُخْرجون﴾ أي كما يخرج الله النبات من الأرض كذلك يخرجكم من قبوركم للبعث يوم القيامة ، قال القرطبي : بيَّن تعالى كمال قدرته ، فكما يحيي الأرض بإخراج النبات بعد همودها كذلك يحييكم بالبعث[2] .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق بين ﴿غُلبت . . ويَغْلبون﴾ وبين ﴿قبل . . وبعد﴾ .

٢ ـ طباق السلب ﴿لا يعلمون . . يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا﴾ .

٣ ـ صيغة المبالغة ﴿وهو العزيز الرحيم﴾ أي المبالغ في العزة ، والمبالغ في الرحمة .

٤ ـ تكرير الضمير لإفادة الحصر ﴿وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ ووردوها اسمية للدلالة على استمرار غفلتهم ودوامها .

٥ ـ الإنكار والتوبيخ ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا﴾ الآية .

٦ ـ جناس الاشتقاق ﴿أساءوا السُّوءى﴾ .

٧ ـ الطباق بين ﴿يبدىء . . ويعيد﴾ وبين ﴿تُمسون . . وتصبحون﴾ .

٨ ـ المقابلة بين حال السعداءوالأشقياء ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضةٍ يُحبرون. وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون﴾ .

٩ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿يخرج الحيَّ من الميّت﴾ استعار الحيَّ للمؤمن ، والميت للكافر ، وهي استعارة في غاية الحسن والإبداع والجمال .

---

(١) زاد المسير ٦/ ٢٩٤ . (٢) القرطبي ١٤/ ١٦ .

١٠ - مراعاة الفواصل في الحرف الأخير لما له من أجمل الوقع على السمع مثل ﴿ثم إليه ترجعون﴾ ﴿في روضة يحبرون﴾ ﴿في العذاب محضرون﴾ .

لطيفـة : قال الزمخشري : دلَّ قوله تعالى ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا﴾ على أن للدنيا ظاهراً وباطناً ، فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها ، والتنعم بملاذها ، وباطنها وحقيقتها أنها معبرٌ للآخرة ، يتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة[1] . ولقد أحسن من قال :

أبنـيَّ إن من الرجـال بهيمةً ... في صورة الرجـل السـميع المبصر
فطِـنٌ بكـل مصيبـةٍ في ماله ... فـإذا أُصيب بدينـه لم يشعر

• • •

قال الله تعالى : ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب . . إلى . . سبحانه وتعالى عما يُشركون﴾ من آية (٢٠) إلى نهاية آية (٤٠) .

المنـاسـبة : لما ذكر تعالى أحوال الناس في الآخرة ، وقدرته على البدء والإعادة ، ذكر هنا الأدلة على الربوبية والوحدانية ، في خلق البشر ، واختلاف الألسنة والصور ، وإحياء الأرض بالمطر ، وفي قيام الناس ومنامهم ، ثم ضرب الأمثال للمشركين في عبادتهم لغير الله مع أنه وحده الخالق الرازق .

اللغـة : ﴿آياته﴾ جمع آية وهي العلامة على الربوبية والوحدانية ﴿تنتشرون﴾ تتصرفون في شؤون معايشكم ﴿لتسكنوا إليها﴾ لتميلوا إليها وتألفوها ﴿قانتون﴾ مطيعون منقادون لإرادته ﴿المثل الأعلى﴾ الوصف الأعلى في الكمال والجلال ﴿القيم﴾ المستقيم الذي لا عوج فيه ﴿منيبين﴾ الإنابة : الرجوع بالتوبة والإخلاص .

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ

التفسير : ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب﴾ أي ومن آياته الباهرة الدالة على عظمته وكمال قدرته أن خلق أصلكم « آدم » من تراب ، وإنما أضاف الخلق إلى الناس ﴿خلقكم﴾ لأن آدم أصل البشر ﴿ثم إذا أنتم بشرٌ تنتشرون﴾ أي ثم أنتم تتطورون من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى بشر عقلاء ، تتصرفون فيما هو قوام معايشكم قال ابن كثير : فسبحان من خلقهم وسيَّرهم وسخَّرهم وصرَّفهم في فنون المعايش والمكاسب ، وفاوت بينهم في العلوم والفكر ، والحسن والقبح ، والغنى والفقر ، والسعادة والشقاوة[2] ! ! ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ أي من آياته الدالة على عظمته وكمال قدرته أن خلق لكم من صنفكم وجنسكم نساءً آدميات مثلكم ، ولم يجعلهن من جنسٍ آخر قال ابن كثير : ولو أنه تعالى جعل الإناث من جنسٍ آخر ، من جان أو حيوان ، لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين

(١) الكشاف ٣/٣٦٨ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/٥١ .

أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ

الأزواج ، بل كانت تحصل النفرة ، وذلك من تمام رحمته ببني آدم[1] ﴿لتسكنوا إليها﴾ أي لتميلوا إليهن وتألفوهن ﴿وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ أي وجعل بين الأزواج والزوجات محبة وشفقة قال ابن عباس : المودة : حب الرجل امرأته ، والرحمةُ شفقته عليها أن يصيبها بسوء ﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون﴾ أي إنَّ فيما ذكر لعبراً عظيمة لقوم يتفكرون في قدرة الله وعظمته ، فيدركون حكمته العلية ﴿ومن آياته خلقُ السموات والأرضِ واختلافُ ألسنتكم وألوانكم﴾ أي ومن آياته العظيمة الدالة على كمال قدرته خلق السموات في ارتفاعها واتساعها ، وخلق الأرض في كثافتها وانخفاضها ، واختلاف اللغات من عربيةٍ وعجمية ، وتركية ، ورومية ، واختلاف الألوان من أبيض وأسود وأحمر ، حتى لا يشتبه شخص بشخص ، ولا إنسان بإنسان ، مع أنهم جميعاً من ذرية آدم ﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ للعالمين﴾ أي لمن كان من ذوي العلم والفهم والبصيرة ﴿ومن آياته منامكم بالليل والنهار﴾ أي ومن آياته الدالة على كمال قدرته نومكم في ظلمة الليل ، ووقت الظهيرة بالنهار راحةً لأبدانكم ﴿وابتغاؤكم من فضله﴾ أي وطلبكم للرزق بالنهار ﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ لقوم يسمعون﴾ أي يسمعون سماع تفهم واستبصار ﴿ومن آياته يُريكم البرق خوفاً وطمعاً﴾ أي ومن آياته العظيمة الدالة على قدرته ووحدانيته أنه يريكم البرق خوفاً من الصواعق ، وطمعاً في الغيث والمطر قال قتادة : خوفاً للمسافر ، وطمعاً للمقيم[2] ﴿ويُنزِّل من السماء ماءً فيُحيي به الأرض بعد موتها﴾ أي وينزل المطر من السماء فينبت به الأرض بعد أن كانت هامدة جامدة لا نبات فيها ولا زرع ﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون﴾ أي إن في ذلك المذكور لعبراً وعظاتٍ لقومٍ يتدبرون بعقولهم آلاء الله ﴿ومن آياته أن تقوم السماءُ والأرضُ بأمره﴾ أي ومن آياته الباهرة الدالة على عظمته أن تستمسك السمواتُ بقدرته بلا عمد ، وأن تثبت الأرض بتدبيره وحكمته فلا تتكفىء بسكانها ولا تنقلب بأهلها ﴿ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾ أي ثم إذا دعيتم إلى الخروج من القبور ، إذا أنتم فوراً تخرجون للجزاء والحساب ، لا يتأخر خروجكم طرفة عين قال المفسرون : وذلك حين ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثانية ويقول : يا أهل القبور قوموا ، فلا تبقى نسمةٌ من الأولين والآخرين ، إلا قامت تنظر[3] ﴿وله من في السموات والأرض﴾ أي وله جل

(١) نفس المرجع السابق والجزء والصفحة . (٢) الطبري ٢١/ ٢٢ . (٣) البحر المحيط ٧/ ١٦٨

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ۝٢٦ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢٧ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٢٨ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٢٩﴾

وعلا كل من في السموات والأرض من الملائكة والإنس والجن ملكاً وخلقاً وتصرفاً لا يشاركه فيها أحد ﴿كلٌ له قانتون﴾ أي جميعهم خاشعون خاضعون منقادون لأمره تعالى ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يُعيده﴾ أي وهو تعالى يُنشىء الخلق من العدم ، ثم يعيدهم بعد موتهم للحساب والجزاء ﴿وهو أهون عليه﴾ أي إعادة الخلق أهونُ عليه من بدئه قال ابن عباس : يعني أيسر عليه ، وقال مجاهد : الإعادة أهون عليه من البداءة ، والبداءة عليه هيِّنة[1] قال المفسرون : خاطب تعالى العباد بما يعقلون ، فإذا كانت الإعادة أسهل من الابتداء في تقديركم وحكمكم ، فإن من قدر على الإنشاء كان البعث أهون عليه حسب منطقكم وأصولكم[2] ﴿وله المثل الأعلى﴾ أي له الوصف الأعلى الذي ليس لغيره ما يدانيه فيه من الجلال والكمال ، والعظمة والسلطان ﴿في السموات والأرض﴾ أي يصفه به من فيهما وهو أنه الذي ليس كمثله شيء ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي القاهر لكل شيء الحكيم الذي كل أفعاله على مقتضى الحكمة والمصلحة ، ثم وضّح تعالى بطلان عبادتهم للأوثان بمثل فقال : ﴿ضرب لكم مثلاً من أنفسكم﴾ أي ضرب لكم أيها القوم ربكم مثلاً واقعياً من أنفسكم ﴿هل لكم ممَّا ملكتْ أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم﴾ أي هل يرضى أحدكم أن يكون عبده ومملوكه شريكاً له في ماله الذي رزقه الله تعالى ؟ فإذا لم يرض أحدكم لنفسه ذلك فكيف ترضون لله شريكاً له وهو في الأصل مخلوق وعبدٌ لله ؟ ﴿فأنتم فيه سواءٌ تخافونهم كخيفتكم أنفسكم﴾ هذا من تتمة المثل أي لستم وعبيدكم سواءٌ في أموالكم ، ولستم تخافونهم كما تخافون الأحرار مثلكم ، وأنتم لا ترضون أن يكون عبيدكم شركاء لكم في أموالكم ، فكيف رضيتم لله شريكاً في خلقه وملكه ؟ ﴿كذلك نفصّل الآيات لقوم يعقلون﴾ أي مثل ذلك البيان الواضح نبيّن الآيات لقومٍ يستعملون عقولهم في تدبر الأمثال ﴿بل اتَّبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم﴾ بلْ للإضراب أي ليس لهم حجة ولا معذرة في إشراكهم بالله بل ذلك بمجرد هوى النفس بغير علم ولا برهان قال القرطبي : لما قامت عليهم الحجة ذكر أنهم يعبدون الأصنام باتباع أهوائهم في عبادتها ، وتقليد الأسلاف في ذلك[3] ﴿فمن يهدي من أضلَّ الله﴾ أي لا أحد يستطيع أن يهدي من أزاد الله إضلاله ﴿وما لهم من ناصرين﴾ أي ليس لهم من عذاب الله منقذٌ ولا ناصر ﴿فأقمْ وجهك

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٥٢ . (٢) هذا قول، وذهب بعض المفسرين الى أن افعل التفضيل ليس على بابه فيكون معنى« أهون» اي وهو هيّن عليه . (٣) القرطبي ١٤/ ٢٣ .

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ﴾

للدين﴾ أي أخلص دينك لله وأقبل على الإِسلام بهمة ونشاط ﴿حنيفاً﴾ أي مائلاً عن كل دين باطل الى الدين الحق وهو الإِسلام ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ أي هذا الدين الحق الذي أمرناك بالاستقامة عليه هو خلقة الله التي خلق الناس عليها وهو فطرة التوحيد كما في الحديث (كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه)[1] الحديث ﴿لا تبديل لخلق الله﴾ أي لا تغيير لتلك الفطرة السليمة من جهته تعالى قال ابن الجوزي : لفظه لفظ النفي ومعناه النهي أي لا تبدلوا خلق الله فتغيّروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها[2] ﴿ذلك الدِّين القيم﴾ أي ذلك هو الدين المستقيم ﴿ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي أكثر الناس جهلة لا يتفكرون فيعلمون أن لهم خالقاً معبوداً ﴿منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة﴾ أي أقيموا وجوهكم أيها الناس على الدين الحق حال كونكم منيبين إلى ربكم أي راجعين إليه بالتوبة وإخلاص العمل ، وخافوه وراقبوه في أقوالكم وأفعالكم ، وأقيموا الصلاة على الوجه الذي يُرضي الله ﴿ولا تكونوا من المشركين﴾ أي ولا تكونوا ممن أشرك بالله وعبد غيره ثم فسَّرهم بقوله ﴿من الذين فرَّقوا دينهم وكانوا شيعاً﴾ أي من الذين اختلفوا في دينهم وغيّروه وبدلّوه فأصبحوا شيعاً وأحزاباً ، كلٌّ يتعصب لدينه ، وكلٌّ يعبد هواه ﴿كلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون﴾ أي كل جماعة وفرقة متمسكون بما أحدثوه ، مسرورون بما هم عليه من الدين المعوج ، يحسبون باطلهم حقاً قال ابن كثير : أي لا تكونوا من المشركين الذين فرقوا دينهم أي بدلوه وغيروه ، وآمنوا ببعض وكفروا ببعض ، كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان ، وسائر أهل الأديان الباطلة ـ مما عدا أهل الإِسلام ـ فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومذاهب باطلة ، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء[3] ﴿وإذا مسَّ الناسَ ضرٌّ﴾ أي وإذا أصاب الناس شدةٌ وفقر ومرض وغير ذلك من أنواع البلاء ﴿دعوا ربَّهم منيبين إليه﴾ أي أفردوه تعالى بالتضرع والدعاء لينجوا من ذلك الضر ، وتركوا أصنامهم لعلمهم أنه لا يكشف الضر إلا الله تعالى ، فلهم في ذلك الوقت إنابة وخضوع ﴿ثم إذا أذاقهم منه رحمةً إذا فريقٌ منهم بربهم يشركون﴾ أي ثم إذا أعطاهم السعة والرخاء والصحة وخلّصهم من ذلك الضر والشدة ، إذا جماعة منهم يشركون بالله ويعبدون معه غيره ، والغرض من الآية التشنيعُ على المشركين ، فإنهم يدعون الله في الشدائد ، ويشركون به في الرخاء ﴿ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون﴾ أمرٌ على وجه التهديد أي ليكفروا بنعم الله ، وليتمتعوا في هذه الدنيا فسوف تعلمون أيها المشركون عاقبة

(١) الحديث أخرجه الشيخان . (٢) زاد المسير ٦/٣٠٢ . (٣) مختصر ابن كثير ٣/٥٥ .

تَعۡلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ

تمتعكم بزينة الحياة ونعيمها الفاني ﴿أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والمعنى : هل أنزلنا على هؤلاء المشركين حجة واضحة قاهرة على شركهم ، أو كتاباً من السماء فهو ينطق ويشهد بشركهم وبصحة ما هم عليه ؟ ليس الأمر كما يتصورون ، والمراد ليس لهم حجة بذلك ﴿وإذا أذقنا الناس رحمةً فرحوا بها﴾ أي وإذا أنعمنا على الناس بالخصب والسعة والعافية استبشروا وسروا بها ﴿وإن تصبهم سيئةٌ بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون﴾ أي وإن أصابهم بلاءٌ وعقوبة بسبب معاصيهم إذا هم ييأسون من الرحمة والفرج قال ابن كثير : وهذا إنكار على الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله ، إذا أصابته نعمة بطر ، وإذا أصابته شدة قنط وأيس[1] ﴿أولم يروا أنَّ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ أي أولم يروا قدرة الله في البسط والقبض ، وأنه تعالى يوسّع الخير في الدنيا لمن يشاء ويضيّق على من يشاء ؟ فلا يجب أن يدعوهم الفقر إلى القنوط من رحمته تعالى ﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يؤمنون﴾ أي إن في المذكور لدلالة واضحة على قدرة الله لقومٍ يصدقون بحكمة الخالق الرازق ﴿فآت ذا القربى حقَّه والمسكين وابن السبيل﴾ أي فأعط القريب حقَّه من البر والصلة وكذلك المسكين والمسافر الذي انقطع في سفره اعطه من الصَّدقة والإحسان قال القرطبي : لما تقدم أنه سبحانه يبسط الرزق ويقدر ، أمر من وسَّع عليه الرزق أن يعطي الفقير كفايته ، ليمتحن شكر الغني ، والخطاب للنبي عليه السلام والمراد هو وأمته[2] ﴿ذلك خيرٌ للذين يريدون وجه الله﴾ أي ذلك الإيتاء والإحسان خيرٌ للذين يبتغون بعملهم وجه الله ويريدون ثوابه ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أي وأولئك هم الفائزون بالدرجات العالية ﴿وما آتيتم من رباً ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله﴾ أي وما أعطيتم من أموالكم يا معشر الأغنياء على وجه الربا ليزيد مالكم ويكثر به ، فلا يزيد ولا يزكو ولا يضاعف عند الله لأنه كسبٌ خبيثٌ لا يبارك الله فيه قال الزمخشري : هذه الآية كقوله تعالى ﴿يمحق الله الربا ويربي الصدقات﴾ سواءً بسواء[3] ﴿وما آتيتم من زكاةٍ تريدون وجه الله﴾ أي وما أعطيتم من صدقةٍ أو إحسان خالصاً لوجه الله الكريم ﴿فأولئك هم المضعفون﴾ أي فأولئك هم الذين لهم الضعف من الأجر والثواب ، الذين تضاعف لهم الحسنات ﴿اللهُ الذي خلقكم ثم رزقكم﴾ أي الله جل وعلا هو الخالق الرازق

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٥٥ (٢) القرطبي ١٤/ ٣٥ . (٣) الكشاف ٣/ ٣٧٩ .

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾

للعباد ، يخْرج الإنسان من بطن أمه عُرياناً لا علم له ولا سمع ولا بصر ، ثم يرزقه بعد ذلك المال والمتاع والأملاك ﴿ثمَّ يُميتكم ثم يحْييكم﴾ أي ثم يميتكم بعد هذه الحياة ، ثم يحييكم يوم القيامة ، ليجازيكم على أعمالكم ﴿هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء﴾ ؟ أي هل يستطيع أحد ممن تعبدونهم من دون الله أن يفعل شيئاً من ذلك ؟ بل الله تعالى هو المستقل بالخلق والرزق والإحياء والإماتة ﴿سبحانه وتعالى عمَّا يُشركون﴾ أي تنزَّه جل وعلا وتقدس عن أن يكون له شريك أو مثيل ، أو ولد أو والد ، وتعالى عما يقول المشركون علواً كبيراً .

البَـلاَغَـة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق بين قوله ﴿خوفاً . . وطمعاً﴾ وبين ﴿يبسط . . ويقدر﴾ وبين ﴿يميتكم . . ويحييكم﴾ وبين ﴿يبدء . . ويعيد﴾ .

٢ ـ جناس الاشتقاق ﴿دعاكم دعوةً﴾ ﴿فطرة الله التي فطر﴾ .

٣ ـ المقابلة بين قوله ﴿وإذا أذقنا الناس رحمةً فرحوا بها﴾ وبين ﴿وإن تُصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون﴾ .

٤ ـ المجاز المرسل ﴿فأقم وجهك﴾ أطلق الجزء وأراد الكل أي توجه إلى الله بكليتك .

٥ ـ السجع المرصَّع كأنه الدرُّ المنظوم مثل ﴿الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم . .﴾ الخ .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس . . إلى . . . ولا يستخفنك الذين لا يوقنون﴾ من آية (٤١) إلى نهاية آية (٦٠) .

المنَـاسَبَة : لما شنَّع على المشركين في عبادتهم لغير الله ، ذكر في هذه الآيات الأسباب الموجبة للمحنة والابتلاء وهي الكفر ، وانتشار المعاصي ، وكثرة الفجور والموبقات ، التي بسببها تقل الخيرات وترتفع البركات ، وضرب الأمثال بهلاك الأمم السابقة ، تنبيهاً لقريش وأمراً لهم بالاعتبار بمن سبقهم من المشركين المكذبين كيف أهلكهم الله بسبب طغيانهم وإجرامهم .

اللغَـــة : ﴿يصدَّعون﴾ يتفرقون يقال : تصدَّع القوم إذا تفرقوا ومنه الصداع لأنه يُفرِّق شعب الرأس ﴿يمهدون﴾ يجعلون لهم مهداً ويوطئون لهم مسكناً ، والمهاد : الفراش ﴿كسفاً﴾ جمع كسفة وهي القطعة ﴿الودق﴾ المطر ﴿مبلسين﴾ يائسين مكتئبين قد ظهر الحزن عليهم من شدة اليأس ﴿يؤفكون﴾ يصرفون ، والإفك : الكذب ﴿يستعتبون﴾ يقال : استعتبته فأعتبني أي استرضيته فأرضاني .

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ

التفسير : ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس﴾ أي ظهرت البلايا والنكبات في بر الأرض وبحرها بسبب معاصي الناس وذنوبهم قال البيضاوي : المراد بالفساد الجدب وكثرة الحرق والغرق ، ومحق البركات ، وكثرةُ المضار بشؤم معاصي الناس أو بكسبهم إياه[1] وقال ابن كثير : أي بانَ النقص في الزروع والثمار بسبب المعاصي لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة[2] ﴿ليذيقهم بعض الذي عملوا﴾ أي ليذيقهم وبال بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم بها جميعاً في الآخرة ﴿لعلَّهم يرجعون﴾ أي لعلهم يتوبون ويرجعون عمّا هم عليه من المعاصي والآثام ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبل﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين : سيروا في البلاد فانظروا الى مساكن الذين ظلموا كيف كان آخر أمرهم وعاقبة تكذيبهم للرسل ، ألم يخرب الله ديارهم ويجعلهم عبرةً لمن يعتبر ﴿كان أكثرهم مشركين﴾ أي كانوا كافرين بالله فأُهلكوا ﴿فأقم وجهك للدين القيم﴾ أي فتوجَّه بكليتك الى الدين المستقيم دين الإسلام ، واستقم عليه في حياتك قال القرطبي : أي أقم قصدك واجعلْ جهتك اتباع الدين القيم يعني الإسلام[3] ﴿من قبل أن يأتي يومٌ لا مردٌّ له من الله﴾ أي من قبل أن يأتي ذلك اليوم الرهيب ، الذي لا يقدر أحدٌ على ردِّه ، لأن الله قضى به وهو يوم القيامة ﴿يومئذٍ يصدعون﴾ أي يومئذٍ يتفرقون ، فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير ﴿من كفر فعليه كفره﴾ أي من كفر بالله فعليه أوزار كفره مع خلوده في النار المؤبدة ﴿ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون﴾ أي ومن فعل خيراً وأطاع الله فلأنفسهم يقدِّمون الخير ويلقون ما تقر به أعينهم في دار النعيم قال القرطبي : أي يوطئون لأنفسهم في الآخرة فراشاً ومسكناً وقراراً بالعمل الصالح ، ومهَّدت الفراش أي بسطته ووطأته[4] ﴿ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله﴾ أي يمهدون لأنفسهم ليجزيهم الله من فضله الذي وعد به عباده المتقين ﴿إنه لا يحب الكافرين﴾ أي لا يحب الكافرين بل يمقتهم ويبغضهم ، يجازي المؤمنين بفضله ، والكافرين بعدله ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مُبشرات﴾ أي ومن آياته الدالة على كمال قدرته أن يرسل الرياح تسوق السحاب مبشرة بنزول المطر والإنبات والرزق ﴿وليذيقكم من رحمته﴾ أي ولينزل عليكم من رحمته الغيث الذي يحيي به البلاد والعباد ﴿ولتجري

---

(١) البيضاوي ٢/١٠٦ . (٢) مختصر ابن كثير ٥٧ . (٣) القرطبي ١٤/٤٢ . (٤) نفس المرجع السابق والصفحة .

وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

الفلك بأمره﴾ أي ولتسير السفن في البحر عند هبوب الرياح بإذنه وإرادته **﴿ولتبتغوا من فضله﴾** أي ولتطلبوا الرزق بالتجارة في البحر **﴿ولعلكم تشكرون﴾** أي ولتشكروا نعم الله الجليلة عليكم **﴿ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً الى قومهم﴾** تسلية للرسول وتأنيس له بقرب النصر أي ولقد أرسلنا من قبلك يا محمد رسلاً كثيرين إلى قومهم المكذبين كما أرسلناك رسولاً الى قومك **﴿فجاءوهم بالبينات﴾** أي جاءوهم بالمعجزات الواضحات والحجج الساطعات الدالة على صدقهم **﴿فانتقمنا من الذين أجرموا﴾** أي فكذبوهم فانتقمنا من الكفرة المجرمين **﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾** أي كان حقاً واجباً علينا أن ننصر المؤمنين على الكافرين ، والآية اعتراضية جاءت بين الآيات المفصّلة لأحكام الرياح تسليةً للنبي عليه السلام قال أبو حيان: والآية اعتراضٌ بين قوله **﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات﴾** وبين قوله **﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً﴾** جاءت تأنيساً للرسول ﷺ وتسلية له ، ووعداً له بالنصر ، ووعيداً لأهل الكفر[1] ثم ذكر تعالى الحكمة من هبوب الرياح وهي إثارة السحب وإخراج الماء منه فقال **﴿الله الذي يرسل الرياح فتثيرُ سحاباً﴾** أي يبعث الرياح فتحرك السحاب وتسوقه أمامها **﴿فيبسطه في السماء كيف يشاء﴾** أي فينشره في أعالي الجو كيف يشاء خفيفاً أو كثيفاً ، مطبقاً أو غير مطبق **﴿ويجعله كسفاً﴾** أي ويجعله أحياناً قطعاً متفرقة **﴿فترى الودق يخرج من خلاله﴾** أي فترى المطر يخرج من بين السحاب **﴿فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون﴾** أي فإذا أنزل ذلك الغيث على من يشاء من خلقه إذا هم يسرون ويفرحون بالمطر **﴿وإن كانوا من قبل أن يُنزل عليهم من قبله لمبلسين﴾** أي وإن كانوا قبل نزول المطر عليهم يائسين قانطين ، قال البيضاوي : والتكرير للتأكيد والدلالة على تطاول عهدهم بالمطر واستحكام يأسهم[2] **﴿فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها﴾** أي فانظر أيها العاقل نظر تدبر واستبصار الى ما ينشأ عن آثار نعمة الله بالمطر من خضرة الأشجار ، وتفتح الأزهار ، وكثرة الثمار ، وكيف أن الله يجعل الأرض تنبت بعد أن كانت هامدة جامدة ؟ **﴿إنّ ذلك لمحيي الموتى﴾** أي إنّ ذلك القادر على إحياء الأرض بعد موتها هو الذي يحيي الناس بعد موتهم **﴿وهو على كل شيء قدير﴾** أي مبالغ في القدرة على جميع الأشياء ، لا يعجزه شيء **﴿ولئن**

(١) البحر ١٧٨/٧ . (٢) البيضاوي ١٠٧/٢

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ * اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ﴾

أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً﴾ أي ولئن أرسلنا على الزرع بعد خضرته ونموه ريحاً ضارة مفسدة فرأوا الزرع مصفراً من أثر تلك الريح **﴿لظلوا من بعده يكفرون﴾** أي لمكثوا بعد اصفراره يجحدون النعمة ، فشأنهم أنهم يفرحون عند الخصب ، فإذا جاءتهم مصيبة في زرعهم جحدوا سابق نعمة الله عليهم ، ثم نبه تعالى إلى أن هؤلاء الكفار كالأموات لا ينفع معهم نصح ولا تذكير فقال **﴿فإنك لا تُسمع الموتى ولا تُسمع الصم الدعاء إذا ولَّوا مدبرين﴾** أي فإنك يا محمد لا تسمع الأموات ولا تسمع من كان في أذنيه صممٌ تلك المواعظ المؤثرة ، ولو أن أصمَّ ولّى عنك مدبراً ثم ناديته لم يسمع فكذلك الكافر لا يسمع ، ولا ينتفع بما يسمع قال المفسرون : هذا مثلٌ ضربه الله للكفار فشبههم بالموتى وبالصم والعمي **﴿وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم﴾** أي ولست بمرشد من أعماه الله عن الهدى **﴿إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾** أي ما تسمع إلا من يصدق بآياتنا فهم الذين ينتفعون بالموعظة لخضوعهم وانقيادهم لطاعة الله **﴿الله الذي خلقكم من ضعف﴾** أي الله الذي خلقكم أيها الناس من أصل ضعيف وهو النطفة ، وجعلكم تتقلبون في أطوار « الجنين ، الوليد ، الرضيع ، المفطوم » وهي أحوال في غاية الضعف ، فصار كأن الضعف مادة خلقتكم **﴿ثم جعل من بعد ضعفٍ قوة﴾** أي ثم جعل من بعد ضعف الطفولة قوة الشباب **﴿ثم جعل من بعد قوةٍ ضعفاً وشيبةً﴾** أي ثم جعل من بعد قوة الشباب ضعف الهرم والشيخوخة ، **﴿يخلق ما يشاء﴾** أي يخلق ما يشاء من ضعف وقوة ، وشبابٍ وشيب **﴿وهو العليم القدير﴾** أي وهو العليم بتدبير الخلق ، القدير على ما يشاء قال أبو حيان : وجعل الخلق من ضعف لكثرة ضعف الإنسان أول نشأته وطفولته ، ثم حال الشيخوخة والهرم ، والترداد في هذه الهيئات شاهد بقدرة الصانع وعلمه[1] **﴿ويوم تقوم الساعةُ يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾** أي ويوم تقوم القيامةويُبعث الناس للحساب يحلف الكافرون المجرمون بأنهم ما مكثوا في الدنيا غير ساعة قال البيضاوي : وإنما استقلوا مدة لبثهم في الدنيا بالنسبة الى مدة عذابهم في الآخرة أو نسياناً منهم[2] **﴿كذلك كانوا يؤفكون﴾** أي كذلك كانوا في الدنيا يصرفون من الحق الى الباطل ، ومن الصدق الى الكذب **﴿وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث﴾** أي وقال العقلاء من أهل الإيمان

(١) البحر ٧/ ١٨٠ . (٢) البيضاوي ٢/ ١٠٨ .

لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

والعلم رداً عليهم وتكذيباً لهم : لقد مكثتم فيما كتبه الله في سابق علمه إلى يوم البعث الموعود ﴿فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾ أي فهذا يوم البعث الذي كنتم تنكرونه ، ولكنكم لم تصدقوا به لتفريطكم في طلب الحق واتباعه ، قال تعالى ﴿فيومئذٍ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم﴾ أي ففي ذلك اليوم لا ينفع الظالمين اعتذارهم ﴿ولا هم يستعتبون﴾ أي لا يقال لهم أرضوا ربكم بتوبة أو طاعة ، لأنه قد ذهب أوان التوبة ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ أي ولقد بينا في هذا القرآن العظيم ما يحتاج الناس إليه من المواعظ والأمثال والأخبار والعبر مما يوضّح الحقّ ويزيل اللبس ﴿ولئن جئتهم بآية ليقولنّ الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون﴾ أي ووالله لئن جئتهم يا محمد بما اقترحوا من الآيات كالعصا والناقة واليد ليقولنَّ المشركون من قومك لفرط عنادهم ما أنت وأصحابك إلا قوم مبطلون ، تُدجلون علينا وتكذبون ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون﴾ أي مثل ذلك الطبع على قلوب الجهلة المجرمين ، يختم الله على قلوب الكفرة الذين لا يعلمون توحيد الله ولا صفاته ﴿فاصبر إنّ وعد الله حق﴾ أي فاصبر يا محمد على تكذيبهم وأذاهم فإن وعد الله بنصرتك وإظهار دينك حقٌ لا بدَّ من إنجازه ﴿ولا يستخفّنك الذين لا يوقنون﴾ أي لا يحملنك على الخفة والقلق جزعاً مما يقوله أولئك الضالون الشاكون ، ولا تترك الصبر بسبب تكذيبهم وإيذائهم .

البَلَاغَة : تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق بين ﴿البر . . والبحر﴾ .

٢ ـ المجاز المرسل باطلاق الجزء وإرادة الكل ﴿بما كسبت أيدي الناس﴾ .

٣ ـ جناس الاشتقاق ﴿فأقم وجهك للدين القيم﴾ .

٤ ـ الاستعارة اللطيفة ﴿فلأنفسهم يمهدون﴾ شبَّه من قدَّم الأعمال الصالحة بمن يمهد فراشه ويوطئه للنوم عليه لئلا يصيبه في مضجعه ما يؤذيه وينغص عليه مرقده .

٥ ـ أسلوب الإطناب ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات ، وليذيقكم من رحمته . .﴾ الآية وذلك لتعداد النعم الكثيرة وكان يكفي أن يقول: ﴿لتبتغوا من فضله﴾ ولكنه أسهب تذكيراً للعباد بالنعم

٦ ـ جناس الاشتقاق ﴿أرسلنا من قبلك رسلاً﴾ .

٧ ـ الإيجاز بالحذف ﴿فجاءوهم بالبينات فانتقمنا﴾ حذف منه فكذبوهم واستهزءوا بهم .

٨ ـ الاستعارة التصريحية ﴿فإنك لا تسمع الموتى﴾ شبه الكفار بالموتى وبالصم في عدم إحساسهم وسماعهم للمواعظ والبراهين بطريق الاستعارة التصريحية .

٩ ـ الطباق بين ﴿ضعف . . وقوة﴾ .

١٠ ـ صيغة المبالغة ﴿العليم القدير﴾ لأن معناه المبالغ في العلم والقدرة .

١١ ـ الجناس التام ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾ المراد بالساعة أولاً القيامة وبالثانية المدة الزمنية فبينهما جناس كامل ، وهذا من المحسنات البديعية .

تنبيه : الصحيح أن الميت يسمع لقوله ﷺ (ما أنتم بأسمع منهم) وقوله (وإن الميت ليسمع قرع نعالهم) وأما قوله تعالى ﴿فإنك لا تسمع الموتى﴾ المراد منه سماع التدبر والاتعاظ ، والله أعلم .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الروم »

***



(٣١) سورة لقمان مكية وآياتها أربع وثلاثون

بين يدي السورة

* هذه السورة الكريمة «سورة لقمان» من السور المكية ، التي تعالج موضوع العقيدة ، وتعنى بالتركيز على الأصول الثلاثة لعقيدة الإيمان وهي « الوحدانية ، والنبوة ، والبعث والنشور » كما هو الحال في السور المكية .

* ابتدأت السورة الكريمة بذكر الكتاب الحكيم ، معجزة محمد الخالدة ، الباقية الدائمة على مدى الزمان ، وأقامت الحجج والبراهين على وحدانية ربّ العالمين ، وذكرت دلائل القدرة الباهرة ، والإبداع العجيب ، في هذا الكون الفسيح ، المحكم النظام المتناسق في التكوين، في سمائه وأرضه ، وشمسه وقمره ، ونهاره وليله ، وفي جباله وبحاره ، وأمواجه وأمطاره ، ونباته وأشجاره ، وفي سائر ما يشاهده المرء من دلائل القدرة والوحدانية ، مما يأخذ بالقلب ، ويبهر العقل ، ويواجه الإنسان مواجهةً جاهرة لا يملك معها إلا التسليم بقدرة الخالق العظيم .

* كما لفتت أنظار المشركين إلى دلائل القدرة والوحدانية منبثة في هذا الكون البديع ، وهزت كيانهم هزاً ﴿هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ؟ بل الظالمون في ضلال مبين﴾ .

* وختمت السورة الكريمة بالتحذير من ذلك اليوم الرهيب الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون﴿ يا أيها الناسُ اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ، ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئاً . .﴾ الآية .

التسمية : سميت سورة لقمان لاشتمالها على قصة « لقمان الحكيم » التي تضمنت فضيلة الحكمة وسرّ معرفة الله تعالى وصفاته ، وذم الشرك ، والأمر بمكارم الأخلاق ، والنهي عن القبائح والمنكرات وما تضمنته كذلك من الوصايا الثمينة التي أنطقه الله بها ، وكانت من الحكمة والرشاد بمكان ! .

اللغة : ﴿الحكيم﴾ المحكم الذي لا خلل فيه ولا تناقض ﴿يوقنون﴾ اليقين : التصديق الجازم ﴿لهوَ الحديث﴾ الباطل الملهي عن الخير والعبادة ﴿وقراً﴾ ثقلاً وصمماً يمنع من السماع ﴿عَمد﴾ جمع عماد وهو الدعامة التي يرتكز عليها الشيء ﴿رواسي﴾ جبالاً ثوابت ، ورست السفينة : إذا ثبتت واستقرت ﴿تميد﴾ تتحرك وتضطرب ﴿بثّ﴾ نشر وفرّق .

سَبَبُ النّزول : روي أن « النضر بن الحارث » كان يشتري المغنّيات ، فلا يظفر بأحد يريد الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾﴾

إلا انطلق به إلى قينته « المغنية » فيقول لها : أطعميه ، واسقيه الخمر ، وغنّيه ، ويقول : هذا خيرٌ مما يدعوك إليه محمد ، من الصلاة والصيام ، وأن تقاتل بين يديه فأنزل الله ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله . .﴾[1] الآية .

التفسير : ﴿الٓـم﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن ، وللإشارة إلى أن هذا الكتاب المعجز الذي أفحم العلماء والأدباء والفصحاء والبلغاء منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية«ألف، لام، ميم » وهي في متناول أيدي الناطقين بالعربية ، وهم عاجزون أن يؤلفوا منها كتاباً مثل هذا الكتاب بعد التحدي والإفحام ، وهذا من أظهر الدلائل وأوضح البراهين على أنه تنزيل الحكيم العليم ﴿تلك آياتُ الكتاب﴾ أي هذه آيات الكتاب البديع ، الذي فاق كل كتاب في بيانه ، وتشريعه ، وأحكامه ﴿الحكيم﴾ أي ذي الحكمة الفائقة ، والعجائب الرائقة ، الناطق بالحكمة والبيان ، والإشارة بالبعيد عن القريب « تلك » للإيذان ببعد منزلته في الفضل والشرف ﴿هدى ورحمةً للمحسنين﴾ أي هداية ورحمة للمحسنين الذين أحسنوا العمل في الدنيا ، وإنما خُصوا بالذكر لأنهم هم المنتفعون بما فيه ، ثم وضح تعالى صفاتهم فقال ﴿الذين يقيمون الصلاة﴾ أي يؤدونها على الوجه الأكمل بأركانها وخشوعها وآدابها ﴿ويؤتون الزكاة﴾ أي يدفعونها الى مستحقيها طيبةً بها نفوسهم ابتغاء مرضاة الله ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ أي يصدّقون بالدار الآخرة ويعتقدون بها اعتقاداً جازماً لا يخالطه شك ولا ارتياب ، وكرّر الضمير « هم » للتأكيد وإفادة الحصر ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾ أي أولئك الموصوفون بتلك الصفات الجليلة على نور وبصيرة ، ومنهج واضح سديد ، من الله العزيز الحميد ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أي هم الفائزون السعداء في الدنيا والآخرة قال أبو حيان : وكرر الإشارة ﴿ وأولئك ﴾ تنبيهاً على عظم قدرهم وفضلهم[2] ، ولما ذكر تعالى حال السعداء ، الذين اهتدوا بكتاب الله وانتفعوا بسماعه ، عطف عليهم بذكر حال الأشقياء ، الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله ، وأقبلوا على استماع الغناء والمزامير فقال ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث﴾ أي ومن الناس من يشتري ما يُلهي عن طاعة الله ، ويَصُد عن سبيله ، مما لا خير ولا فائدة فيه قال الزمخشري : واللهو كل باطلٍ ألهى عن الخير ، نحو

(١) انظر أسباب النزول للواحدي ، وتفسير القرطبي والبحر المحيط . (٢) البحر ٧/١٨٣ .

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا﴾

السمر بالأساطير ، والتحدث بالخرافات المضحكة ، وفضول الكلام وما لا ينبغي[1] ، وروى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه سئل عن الآية فقال : والله الذي لا إله إلا هو - يكررها ثلاثاً - إنما هو الغناء[2] ، وقال الحسن البصري : نزلت هذه الآية في الغناء والمزامير[3] ﴿ليُضل عن سبيل الله بغير علم﴾ أي ليُضل الناس عن طريق الهدى ، ويُبعدهم عن دينه القويم ، بغير حجة ولا برهان ﴿ويتخذها هُزواً﴾ أي ويتخذ آيات الكتاب المجيد سخرية واستهزاءً ، وهذا أدخل في القبح ، وأعرقُ في الضلال ﴿أولئك لهم عذابٌ مهين﴾ أي لهم عذاب شديد مع الذلة والهوان ﴿وإذا تتلى عليه آياتنا﴾ أي وإذا قرئت عليه آيات القرآن ﴿ولّى مستكبراً كأن لم يسمعها﴾ أي أعرض وأدبر متكبراً عنها كأنه لم يسمعها ، شأن المتكبر الذي لا يلتفت إلى الكلام ، ويجعل نفسه كأنها غافلة ﴿كأنَّ في أذنيه وقراً﴾ أي كأن في أذنيه ثقلاً وصمماً يمنعانه عن استماع آيات الله ﴿فبشره بعذابٍ أليم﴾ أي أنذره يا محمد بعذاب مؤلم ، مفرط في الشدة والإيلام ، ووضع البشارة مكان الإنذار تهكم وسخرية قال في البحر : تضمنت هذه الآية ذمَّ المشتري من وجوه : التولية عن الحكمة ، ثم الاستكبار عن الحق ، ثم عدم الالتفات إلى سماع الآيات ، ثم الإيغال في الإعراض مشبهاً حال من لم يسمعها ، لكونه لا يلقي لها بالاً ولا يلتفت إليها ، ثم التهكم به بالبشارة بأشد العذاب[4] .. ولما ذكر ما وعد به الكفار من العذاب الأليم ، ذكر ما وعد به المؤمنين من جنات النعيم فقال ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ، وبين حسن النيَّة وإخلاص العمل ﴿لهم جنات النعيم﴾ أي لهم على إيمانهم واستقامتهم على شريعة الله جناتُ الخلد يتنعمون فيها بأنواع الملاذّ ، من المآكل والمشارب والملابس ، والنساء والحور العين ، وسائر ما أكرمهم الله به من الفضل والإنعام ، مما لا عينٌ رأتْ ولا أُذُنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿خالدين فيها﴾ أي دائمين في تلك الجنات ، لا يخرجون منها أبداً ، ولا يبغون عنها حولاً ﴿وعْدَ الله حقاً﴾ أي وعداً من الله قاطعاً ، كائناً لا محالة ، لا خلف فيه لأن الله لا يخلف الميعاد ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي هو تعالى العزيز الذي لا يغلبه شيء ليمنعه عن إنجاز وعده ، الحكيم الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة .. ثم نبَّه تعالى إلى دلائل قدرته ، وآثار عظمته وجلاله لإقامة البراهين على وحدانيته فقال ﴿خلق السموات بغير عمدٍ ترونها﴾ أي خلق السموات في سعتها وعظمتها وإحكامها بدون دعائم ترتكز عليها ، حال كونكم تشاهدونها كذلك واقفة من غير أن

(١) الكشاف (٢) الطبري ٢١/ ٣٩ . (٣) ابن كثير ٣/ ١٦٣ المختصر وانظر أسباب النزول في بدء السورة الكريمة .
(٤) البحر المحيط ٧/ ١٨٤ .

فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ الظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

تستند على شيء ، ولا تمسكها إلا قدرة الله العليّ الكبير ﴿وألقى في الأرض رواسي أنْ تميد بكم﴾ أي جعل فيها جبالاً ثوابت لئلا تتحرك وتضطرب بكم فتهلككم بأن تقلبكم عن ظهرها ، أو تهدم بيوتكم بتزلزلها قال الإمام الفخر : واعلم أن الأرض ثباتُها بسبب ثقلها ، وإلا كانت تزول عن موضعها بسبب المياه والرياح ، ولو خلقها تعالى مثل الرمل لما كانت تثبتُ للزراعة ، كما نرى الأراضي الرملية ينتقل الرمل الذي فيها من موضع الى موضع ، فهذه هي حكمة إرسائها بالجبال[1] ، فسبحان الكبير المتعال ﴿وبثَّ فيها من كل دابة﴾ أي ونشر وفرّق في أرجاء الأرض من كل أنواع الحيوانات والدواب من مأكول ومركوب ، مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذي خلقها ﴿وأنزلنا من السماء ماءً﴾ أي وأنزلنا لحفظكم وحفظ دوابكم المطر من السحاب ﴿فأنبتنا فيها من كل زوجٍ كريم﴾ أي فأنبتنا في الأرض من كل نوعٍ من النبات ، ومن كل صنفٍ من الأغذية والأدوية ﴿كريم﴾ أي كثير المنافع ، بديع الخلق والتكوين[2] ﴿هذا خلقُ الله﴾ أي هذا الذي تشاهدونه وتعاينونه أيها المشركون هو من مخلوقات الله ، فانظروا في السموات والأرض ، والإنسان ، والنبات ، والحيوان ، وسائر ما خلق الله ثم تفكروا في آثار قدرته ، وبديع صنعته ، ثم أخبروني ﴿ماذا خلق الذين من دونه﴾ ؟ أي أيَّ شيءٍ خلقته آلهتكم التي عبدتموها من دون الله من الأوثان والأصنام ؟ وهو سؤال على جهة التهكم والسخرية بهم وبآلهتهم المزعومة ، ثم أضرب عن تبكيتهم الى التسجيل عليهم بالضلال الواضح فقال ﴿بل الظالمون في ضلالٍ مبين﴾ أي بل المشركون في خسران ظاهر ، وضلالٍ واضح ما بعده ضلال ، لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها ، وعبدوا ما لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر ، فهم أضل من الحيوان الأعجم ، لأن من عبد صنماً جامداً ، وترك خالقاً عظيماً مدبراً ، يكون أحطَّ شأناً من الحيوان .

البَـلاَغَـة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ وضع المصدر للمبالغة ﴿هدى ورحمة للمحسنين﴾

٢ ـ الإشارة بالبعيد ﴿تلك آيات﴾ عن القريب ﴿هذه﴾ لبيان علو الرتبة ورفعة القدر والشأن .

٣ ـ الإطناب بتكرار الضمير واسم الإشارة ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم﴾ لزيادة الثناء عليهم والتكريم لهم ، كما أن الجملة تفيد الحصر أي هم المفلحون لا غيرهم .

٤ ـ الاستعارة التصريحية ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث﴾ شبّه حالهم بحال من يشتري سلعة

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٥/ ١٤٣ . (٢) يقول سيد قطب تغمده الله برحمته في تفسيره الظلال : « والنص القرآني يقرر أن الله أنبت النبات أزواجاً ﴿من كل زوج كريم﴾ وهي حقيقة ضخمة اهتدى اليها العلم قريباً جداً ، فكل نبات له خلايا تذكير، وخلايا تأنيث ، إما مجتمعة في زهرة واحدة ، او في زهرتين في العود الواحد ، وإما منفصلة في عودين أو شجرتين ولا توجد الثمرة إلا بعد التقاء وتلقيح بين زوج النبات ، كما هو الشأن في الإنسان والحيوان على السواء » .

وهو خاسر فيها ، واستعار لفظ يشتري لمعنى يستبدل بطريق الاستعارة التصريحية .

٥ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كأنَّ في أذنيه وقراً﴾ ذكرت أداة التشبيه وحذف وجه الشبه فهو تشبيه « مرسل مجمل » .

٦ - أسلوب التهكم ﴿فبشره بعذاب أليم﴾ لأن البشارة إنما تكون في الخير ، واستعمالها في الشر سخرية وتهكم .

٧ - الالتفات من الغيبة إلى التكلم ﴿وأنزلنا من السماء﴾ بعد قوله ﴿خلق ، وألقى ، وبثّ﴾ وكلها بضمير الغائب ، ثم التفت فقال ﴿وأنزلنا﴾ تعظيماً لشأن الرحمن ، وتوفيةً لمقام الامتنان ، وهذا من المحسنات البديعية[1] .

٨ - إطلاق المصدر على اسم المفعول مبالغة ﴿هذا خلق الله﴾ أي مخلوقه .

٩ - الاستفهام للتوبيخ والتبكيت ﴿ماذا خلق الذين من دونه﴾ ؟

١٠ - وضع الظاهر موضع الضمير لزيادة التوبيخ ، وللتسجيل عليهم بغاية الظلم والجهل ﴿بل الظالمون في ضلال مبين﴾ وكان الأصل أن يقال : بل هم في ضلالٍ مبين .

١١ - مراعاة الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿عذاب أليم ، جنات النعيم ، زوج كريم ، الكتاب الحكيم﴾ ويسمى هذا النوع في علم البديع « سجعاً » وأفضله ما تساوت فقره ، وكان سليماً من التكلف ، خالياً من التكرار ، وهو كثير في القرآن الكريم في نهاية الآيات الكريمة .

فَـائِـدَة : وصفُ الكتاب بالحكمة في هذه السورة ﴿الكتاب الحكيم﴾ مناسبٌ لجو السورة الكريمة لأن موضوع الحكمة قد تكرر فيها ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾ فناسب أن يختار هذا الوصف من أوصاف الكتاب المجيد ، على طريقة القرآن في التنسيق بين الألفاظ والمواضيع .

* * *

قال الله تعالى : ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة . . إلى . . إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾ من آية (١٢) إلى نهاية آية (١٩) .

المُنَاسَبَة : لمّا بيّن تعالى فساد اعتقاد المشركين ، بسبب عنادهم وإشراكهم من لا يخلق شيئاً بمن هو خالق كل شيء ، ذكر هنا وصايا « لقمان » الحكيم ، وهي وصايا ثمينة في غاية الحكمة والدعوة إلى طريق الرشاد ، وقد جاءت هذه الوصايا مبدوءةً بالتحذير من الشرك الذي هو أقبح الذنوب ، وأعظم الجرائم عند الله .

اللغَـة : ﴿الحكمة﴾ الإصابة في القول والعمل ، وأصلها وضع الشيء في موضعه قال في اللسان : أحكم الأمر أتقنه ويُقال للرجل إذا كان حكيماً : قد أحكمته التجارب ، والحكيم : المتقن

---

(١) قال الفخر الرازي : وفي هذا الالتفات فصاحة وحكمة ، أما الفصاحة فهي أن السامع إذا سمع كلاماً طويلاً من نمط واحد ، ثم ورد عليه نمط آخر يستطيبه ، ألا ترى أنك إذا قلت : قال زيدٌ كذا ، وقال خالد كذا ، وقال عمرو كذا ، ثم إن بكراً قال قولاً حسناً . . يستطاب لما قد تكرر القول مراراً ، وأما الحكمة فهو أن إنزال الماء نعمة ظاهرة متكررة في كل زمان ومكان ، فأسند الإنزال الى نفسه صريحاً ليتنبه الإنسان لشكر النعمة ، فيزيد له في الرحمة . التفسير الكبير ٢٥/ ١٤٤ .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ

للأمور[1] ﴿يعظه﴾ ينصحه ويذكره ، والعظةُ والموعظة : النصح والإرشاد ﴿وهناً﴾ الوهن : الضعف ومنه﴿ وهن العظم مني﴾ أي ضعف ﴿فصاله﴾ الفصال : الفطام وهو لفظ يستعمل في الرضاع خاصة ، وأما الفصل فهو أعم ، وفصلت المرأة ولدها أي فطمته وتركت إرضاعه ﴿أناب﴾ رجع ، والمنيب الراجع إلى ربه بالتوبة والاستغفار ﴿تُصعِّر﴾ الصَّعَر : بفتحتين في الأصل داءٌ يصيب البعير فيلوي منه عنقه ثم استعمل في ميل العنق كبراً وافتخاراً قال عمرو التغلبي :

وكنّا إذا الجبّار صعَّر خدَّه أقمنا له من ميله فتقوَّم[2]

﴿مرحاً﴾ فرحاً وبطراً وخيلاء ﴿مختال﴾ متبختر في مشيته ﴿اقصد﴾ توسَّط ، والقصد : التوسط بين الإسراع والبطء ﴿اغضض﴾ غضُّ الصوت خفضه قال جرير :

فغُضَّ الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

التفسِير : ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾ أي والله لقد أعطينا لقمان الحكمة وهي الإصابة في القول ، والسَّداد في الرأي ، والنطق بما يوافق الحق ، قال مجاهد : الحكمة : الفقه والعقل ، والإصابة في القول ، ولم يكن نبياً إنما كان حكيماً[3] ﴿أنْ اشكر للّه﴾ أي وقلنا له : اشكر الله على إنعامه وإفضاله عليك حيث خصَّك بالحكمة وجعلها على لسانك قال القرطبي : والصحيح الذي عليه الجمهور أن « لقمان » كان حكيماً ولم يكن نبياً وفي الحديث (لم يكن لقمان نبياً ، ولكن كان عبداً كثير التفكر حسن اليقين ، أحبَّ الله تعالى فأحبَّه ، فمنَّ عليه بالحكمة)[4] ﴿ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه﴾ أي ومن يشكر ربه فثواب شكره راجع لنفسه ، وفائدته إنما تعود عليه ، لأن الله تعالى لا ينفعه شكر من شكر ، ولا يضره كفر من كفر ولهذا قال بعده ﴿ومن كفر فإنَّ الله غنيٌّ حميد﴾ أي ومن جحد نعمة الله فإنما أساء الى نفسه ، لأن الله مستغنٍ عن العباد ، محمودٌ على كل حال ، مستحقٌ للحمد لذاته وصفاته قال الرازي : المعنى أن الله غير محتاج إلى شكر حتى يتضرَّر بكفر الكافر ، فهو في نفسه محمود سواء شكره الناس أم لم يشكروه[5] ، ثم ذكر تعالى بعض نصائح لقمان لابنه وبدأ بالتحذير له من الشرك ، الذي هو نهاية القبح والشناعة فقال ﴿وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بُنيَّ لا تشرك بالله﴾ أي واذكر لقومك موعظة لقمان الحكيم لولده ، حين قال له واعظاً ناصحاً مرشداً : يا بني كن عاقلاً ولا تشرك بالله أحداً ، بشراً أو صنماً أو ولداً ﴿إنَّ الشرك لظلمٌ عظيم﴾ أي إن الشرك قبيح ، وظلم صارخ لأنه وضعٌ للشيء في غير موضعه ، فمن سوَّى بين الخالق والمخلوق ، وبين الإله والصنم فهو ـ بلا شك ـ أحمق الناس ، وأبعدهم عن منطق العقل والحكمة ، وحري به أن يوصف بالظلم ويجعل في عداد البهائم ﴿ووصينا الإنسان بوالديه﴾ أي

(١) لسان العرب مادة حكم . (٢) القرطبي ١٤/ ٦٩ . (٣) الطبري ٢١/ ٤٣ . (٤) القرطبي ١٤/ ٥٩ . (٥) التفسير الكبير ٢٥/ ١٤٥ .

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾

أمرناه بالإحسان إليهما لا سيما الوالدة ﴿حملته أمه وهناً على وهن﴾ أي حملته جنيناً في بطنها وهي تزداد كل يوم ضعفاً على ضعف ، من حين الحمل إلى حين الولادة ، لأن الحمل كلما ازداد وعظم ، إزدادت به ثقلاً وضعفاً ﴿وفصاله في عامين﴾ أي وفطامه في تمام عامين ﴿أن اشكر لي ولوالديك﴾ أي وقلنا له : اشكر ربك على نعمة الايمان والإحسان ، واشكر والديك على نعمة التربية ﴿إليَّ المصير﴾ أي إليَّ المرجع والمآب فأجازي المحسن على إحسانه ، والمسيء على إساءته قال ابن جزي : وقوله ﴿أن اشكر﴾ تفسيرٌ للوصية ، واعترض بينها وبين تفسيرها بقوله ﴿حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين﴾ ليبيّن ما تكابده الأم بالولد مما يوجب عظيم حقها ، ولذلك كان حقها أعظم من حق الأب[1] ﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علمٌ فلا تطعهما﴾ أي وإن بذلا جهدهما ، وأقصى ما في وسعهما ، ليحملاك على الكفر والإشراك بالله فلا تطعهما ، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ﴿وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾ أي وصاحبهما في الحياة الدنيا بالمعروف والإحسان إليهما ـ ولو كانا مشركين ـ لأن كفرهما بالله لا يستدعي ضياع المتاعب التي تحمّلاها في تربية الولد ، ولا التنكر بالجميل ﴿واتّبع سبيلَ منْ أناب إليّ﴾ أي واسلك طريق من رجع الى الله بالتوحيد والطاعة والعمل الصالح ﴿ثم إليَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾ أي مرجع الخلق إلى الله فيجازيهم على أعمالهم ، والحكمةُ من ذكر الوصية بالوالدين ـ ضمن وصايا لقمان ـ تأكيد ما أفادته الآية الأولى من تقبيح أمر الشرك ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ فكأنه تعالى يقول : مع أننا وصينا الإنسان بوالديه ، وأمرناه بالإحسان إليهما والعطف عليهما ، وألزمناه طاعتهما بسبب حقهما العظيم عليه ، مع كل هذا فقد نهيناه عن طاعتهما في حالة الشرك والعصيان ، لأن الإشراك بالله من أعظم الذنوب ، وهو في نهاية القبح والشناعة . . ثم رجع الكلام إلى وصايا لقمان فقال تعالى ﴿يا بُنيّ إنها إن تك مثقال حبةٍ من خردل﴾ أي يا ولدي إن الخطيئة والمعصية مهما كانت صغيرة حتى ولو كانت وزن حبة الخردل في الصغر ﴿فتكن في صخرة أو في السمواتِ أو في الأرض يأتِ بها الله﴾ أي فتكن تلك السيئة ـ مع كونها في أقصى غايات الصغر ـ في أخفى مكان وأحرزه ، كجوف الصخرة الصماء ، أو في أعلى مكان في السماء أو في الأرض يحضرها الله سبحانه ويحاسب عليها ، والغرض التمثيلُ بأن الله لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد ﴿إن الله لطيف خبير﴾ أي هو سبحانه لطيف بالعباد خبير

(١) التسهيل ٣/ ١٢٦ .

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾

أي عالم ببواطن الأمور ﴿يا بُنيَّ أقم الصلاة﴾ أي حافظ على الصلاة في أوقاتها وبخشوعها وآدابها ﴿وأمر بالمعروف وانه عن المنكر﴾ أي وأمر الناس بكل خير وفضيلة ، وانههم عن كل شر ورذيلة ﴿واصبر على ما أصابك﴾ أي اصبر على المحن والبلايا ، لأنَّ الداعي إلى الحق معرَّض لإيصال الأذى إليه قال أبو حيان : لما نهاه أولاً عن الشرك ، وأخبره ثانياً بعلمه تعالى وباهر قدرته ، أمره بما يتوسل به إلى الله من الطاعات ، فبدأ بأشرفها وهي الصلاة ، ثم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ثم بالصبر على ما يصيبه من المحن بسبب الأمر بالمعروف ، فكثيراً ما يُؤذى فاعل ذلك[1] ﴿إن ذلك من عزم الأمور﴾ أي إن ذلك المذكور مما عزمه الله وأمر به قال ابن عباس : من حقيقة الإيمان الصبر على المكاره وقال الرازي : معناه إن ذلك من الأمور الواجبة المعزومة أي المقطوعة ، فالمصدر بمعنى المفعول[2] ﴿ولا تُصعِّر خدك للناس﴾ أي لا تمل وجهك عنهم تكبراً عليهم قال القرطبي : أي لا تمل خدك للناس كبراً عليهم وإعجاباً ، وتحقيراً لهم ، وهو قول ابن عباس[3] ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً﴾ أي لا تمش متبختراً متكبراً ﴿إن الله لا يحب كل مختال فخور﴾ تعليلٌ للنهي أي لأن الله يكره المتكبر الذي يرى العظمة لنفسه ، ويتكبر على عباد الله ، المتبختر في مشيته ، والفخور الذي يفتخر على غيره ، ثم لما نهاه عن الخُلُق الذميم ، أمره بالخُلُق الكريم فقال ﴿واقصد في مشيك﴾ أي توسَّط في مشيتك واعتدل فيها بين الإسراع والبطء ﴿واغضض من صوتك﴾ أي اخفض من صوتك فلا ترفعه عالياً فإنه قبيح لا يجمل بالعاقل ﴿إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾ أي إن أوحش الأصوات صوتُ الحمير فمن رفع صوته كان مماثلاً لهم ، وأتى بالمنكر القبيح قال الحسن : كان المشركون يتفاخرون برفع الأصوات فرد عليهم بأنه لو كان خيراً لفضلتهم به الحمير ، وقال قتادة : أقبح الأصوات صوت الحمير ، أوله زفير وآخره شهيق .

البلاغة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق بين ﴿شكر . . وكفر﴾ .

٢ ـ صيغة المبالغة ﴿غني حميد﴾ وكذلك ﴿لطيف خبير﴾ و﴿فخور﴾ لأن فعيل وفعول من صيغ المبالغة ومعناه كثير الحمد وكثير الفخر .

٣ ـ ذكر الخاص بعد العام ﴿بوالديه حملته أمه﴾ وذلك لزيادة العناية والاهتمام بالخاص .

٤ ـ تقديم ما حقه التأخير لإفادة الحصر مثل ﴿إليَّ المصير﴾ ﴿إليَّ مرجعكم﴾ أي لا إلى غيري .

(١) البحر المحيط ٧/١٨٨ . (٢) التفسير الكبير ٢٥/١٤٩ . (٣) القرطبي ١٤/ ٧٠ .

٥ ـ التمثيل ﴿إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة﴾ مثَّل ذلك لسعة علم الله وإحاطته بجميع الأشياء صغيرها وكبيرها ، جليلها وحقيرها فإنه تعالى يعلم أصغر الأشياء في أخفى الأمكنة .

٦ ـ التتميم ﴿فتكن في صخرة﴾ تمَّم خفاءها في نفسها بخفاء مكانها وهذا من البديع .

٧ ـ المقابلة ﴿وأمر بالمعروف﴾ ثم قال ﴿وانه عن المنكر﴾ فقابل بين اللفظين .

٨ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿إن أنكر الأصوات لصوتُ الحمير﴾ شبَّه الرافعين أصواتهم بالحمير ، وأصواتهم بالنهيق ، ولم يذكر أداة التشبيه بل أخرجه مخرج الاستعارة للمبالغة في الذم ، والتنفير عن رفع الصوت .

تنبيـه : حين أمر تعالى بشكر الوالدين قدَّم شكره تعالى على شكرهما فقال ﴿أن اشكر لي﴾ ثم أردفه بقوله ﴿ولوالديك﴾ وذلك لإشعارنا بأن حق الله أعظم من حق الوالدين ، لأنه سبحانه هو السبب الحقيقي في خلق الإنسان ،والوالدان سبب في الصورة والظاهر ، ولهذا حرَّم تعالى طاعتهما على الإنسان إذا أرادا إجباره على الكفر .

قال الله تعالى : ﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات . . إلى . . إن الله عليم خبير﴾
من آية (٢٠) إلى آية (٣٤) نهاية السورة الكريمة

* * *

المنَاسَبَة : لما حذَّر تعالى من الشرك ، وأكده بوصايا لقمان الحكيم في الإيمان ومكارم الأخلاق ، ذكر هنا الأدلة الساطعة ، والبراهين القاطعة على وحدانيته تعالى ، ونبَّه بالصنعة على الصانع ، وما له من نعمٍ لا تُحصى من تسخير السموات بما فيها من الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والسحاب ، وتسخير الأرض وما فيها من الحيوان ، والنبات ، والمعادن ، والبحار ، وغير ذلك من الأدلة الشاهدة بوحدانيته ، وختم السورة الكريمة ببيان « المغيبات الخمس » .

اللغَـة : ﴿أسبغ﴾ أتم وأكمل يقال : سبغت النعمة سبوغاً إذا تمت ﴿استمسك﴾ تمسك وتعلق واعتصم ﴿نفدت﴾ فنيت وفرغت ﴿يولج﴾ يدخل والإيلاج : الإدخال ومنه﴿ حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾ ﴿الفلك﴾ السفن ﴿كالظلل﴾ الظلل : جمع ظلَّة وهي كل ما أظلَّك من جبل أو سحاب ﴿ختَّار﴾ الختَّار : الغدار ، والختر : أسوء الغدر قال الشاعر :

فإنـك لو رأيت أبـا عمير ... مـلأت يديك من غدر وختر[1]

﴿الغرور﴾ ما يغرُّ ويخدع من شيطان وغيره ، وغرَّه الأمل : خدعه .

﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ

التفسِيـر : ﴿ألم تروا أن الله سخَّر لكم ما في السموات وما في الأرض﴾ أي ألم تعلموا أيها الناس أن الله العظيم الجليل سخر لكم ما في السموات من شمس وقمر ونجوم لتنتفعوا بها ، وسخَّر لكم ما في الأرض من جبالٍ وأشجار وثمارٍ وأنهار وغير ذلك مما لا تُحصى ﴿وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة

(١) القرطبي ١٤/ ٨٠ .

مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾

وباطنة﴾ أي وأتمَّ عليكم أيها الناس نعمه العديدة ، الظاهرة المرئية كنعمة السمع والبصر والصحة والإسلام ، والباطنة الخفية كالقلب والعقل والفهم والمعرفة وما أشبه ذلك قال البيضاوي : أي أسبغ عليكم نعمه المحسوسة والمعقولة ، ما تعرفونه وما لا تعرفونه[1] ﴿ومن النَّاس من يجادل في اللَّه بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾ أي ومن الناس فريق جاحدون يخاصمون ويجادلون في توحيد الله وصفاته بغير علم ولا فهم ، ولا حجة ولا برهان ، ولا كتاب منزل من عند الله قال القرطبي : نزلت في يهودي جاء إلى النبي ﷺ فقال يا محمد : أخبرني عن ربك من أيِّ شيء هو ؟ فجاءت صاعقةٌ فأخذته[2] ، والمنيرُ : الواضح البيِّن المنقذ من ظلمة الجهل والضلال ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء المجادلين بالباطل اتبعوا ما أنزل الله على رسوله ، وصدِّقوا به فإنه يفرق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ﴿قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا﴾ أي قالوا نسير على طريقة آبائنا ونقتدي بهم في عبادة الأوثان والأصنام ﴿أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي أيتبعونهم ولو كانوا ضالين ، حتى ولو كان الشيطان يدعوهم الى النار المستعرة ذات العذاب الشديد ؟ ﴿ومن يسلم وجهه إلى الله﴾ أي ومن يقبل على طاعة الله وينقاد لأوامره ، ويخلص قصده وعبادته لله ﴿وهو محسن﴾ أي وهو مؤمن موحد قال القرطبي : لأن العبادة من غير احسانٍ ولا معرفة القلب لا تنفع[3] ، ونظير الآية ﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن﴾ فلا بدَّ من الإيمان والإحسان ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ أي تمسك بحبلٍ لا انقطاع له ، وتعلق بأوثق ما يتعلق به من الأسباب قال صاحب الكشاف : هذا من باب التمثيل ، مثلت حال المتوكل بحال من تدلى من شاهق فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة ، من حبلٍ متين مأمونٍ انقطاعه[4] وقال الرازي : أوثق العرى جانب الله ، لأن كل ما عداه هالك منقطع ، وهو باقٍ لا انقطاع له[5] ﴿وإلى الله عاقبة الأمور﴾ أي إلى الله وحده ـ لا إلى أحدٍ سواه ـ مرجع ومصير الأمور كلها فيجازي العامل عليها أحسن الجزاء ﴿ومن كفر فلا يحزنك كفره﴾ تسلية للرسول ﷺ أي لا يهمنك يا محمد كفر من كفر ، ولا ضلال من ضلَّ ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، فإنا سننتقم منهم إن عاجلاً أو آجلاً ﴿إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا﴾ أي إلينا

---

(١) البيضاوي ٢/ ١٠٩ (٢) القرطبي ١٤/ ٧٤ وقيل : نزلت في « النضر بن الحارث » و« أبي بن خلف » وأشباههما الذين كانوا يجادلون النبي ﷺ في وحدانيته تعالى وصفاته ، من غير علم عقلي ولا دليل شرعي .

(٣) القرطبي ١٤/ ٧٤ . (٤) الكشاف ٣/ ٣٩٥ . (٥) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٥/ ١٥٤ .

نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

رجوعهم ، فنخبرهم بأعمالهم التي عملوها في الدنيا ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ أي عليم بما في قلوبهم من المكر والكفر والتكذيب فيجازيهم عليها ﴿نمتعهم قليلاً﴾ أي نبقيهم في الدنيا مدة قليلة يتمتعون بها ﴿ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾ أي ثم نلجئهم في الآخرة إلى عذاب شديد هو عذاب النار ، الفظيع الشاق على النفس ، ثم لما بيَّن تعالى استحقاقهم للعذاب ، بيَّن تناقضهم في الدنيا وهو اعترافهم بأن الله خالق السموات والأرض ، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها ملك له وأنها مخلوقاته فقال ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنَّ الله﴾ أي ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين من كفار مكة من خلق السموات والأرض ؟ ليقولنَّ - لغاية وضوح الأمر - الله خلقهن فقد اضطروا إلى الاعتراف به ﴿قل الحمد لله﴾ أي قل لهم : الحمد لله على ظهور الحجة عليكم ، وعلى أن دلائل الإيمان ظاهرة للعيان ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ أي بل أكثر هؤلاء المشركين لا يفكّرون ولا يتدبرون فلذلك لا يعلمون ، ثم قال تعالى ﴿لله ما في السموات والأرض﴾ أي له جلَّ وعلا ما في الكائنات ملكاً وخلقاً وتدبيراً ﴿إنَّ الله هو الغنيُّ الحميد﴾ أي المستغني عن خلقه وعن عبادتهم ، المحمود في صنعه وآلائه ﴿ولو أنَّ ما في الأرض من شجرة أقلام﴾ أي ولو أنَّ جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً ﴿والبحر يمده من بعده سبعة أبحر﴾ أي وجعل البحر بسعته حبراً ومداداً وأمده سبعة أبحر معه فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله ﴿ما نفدت كلمات الله﴾ أي لانتهت وفنيت تلك الأقلام والبحار وما انتهت كلمات الله ، لأن الأشجار والبحار متناهية ، وكلمات الله غير متناهية قال القرطبي : لما ذكر تعالى أنه سخر لهم ما في السموات وما في الأرض ، وأنه أسبغ النعم ، نبّه على أن الأشجار لو كانت أقلاماً ، والبحار لو كانت مداداً ، فكتب بها عجائب صنع الله ، الدالة على قدرته ووحدانيته لم تنفد تلك العجائب[1] وقال ابن الجوزي : وفي الكلام محذوف تقديره : فكتب بهذه الأقلام وهذه البحور كلمات الله ، لتكسرت الأقلام ونفدت البحور ولم تنفد كلمات الله أي لم تنقطع[2] ﴿إن الله عزيز حكيم﴾ أي غالب لا يعجزه شيء ، حكيم لا يخرج عن علمه وحكمته أمر ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾ أي ما خلقكم أيها الناس ابتداءً ، ولا بعثكم بعد الموت انتهاءً إلا كخلق نفس واحدة وبعثها ، لأنه إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون ، قال الصاوي : المعنى أن الله لا يصعب عليه شيء ، بل

(١) القرطبي ١٤/ ٧٦ . (٢) زاد المسير ٦/ ٣٢٦ .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ﴾

خلق العالم وبعثه برمّته كخلق نفس واحدة وبعثها[١] ﴿إنَّ الله سميع بصير﴾ أي سميع لأقوال العباد، بصير بأعمالهم، ثم أشار تعالى الى دلائل قدرته في الآفاق فقال ﴿ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ أي ألم تعلم أيها المخاطب علماً قوياً جارياً مجرى الرؤية، أن الله العظيم الجليل يدخل ظلمة الليل على ضوء النهار، ويدخل ضوء النهار على ظلمة الليل، ويزيد في هذا وينُقص من هذا حسب الحكمة الأزلية ﴿وسخَّر الشمس والقمر كلٌ يجري إلى أجل مسمى﴾ أي ذلّلهما بالطلوع والأفول تقديراً للآجال، وإتماماً للمنافع، كلٌ منهما يسير في فلكه إلى غاية محدودة هي يوم القيامة ﴿وأنَّ الله بما تعملون خبير﴾ أي وأنه تعالى عالم بأحوالكم وأعمالكم لا تخفى عليه خافية، فإن من شاهد مثل ذلك الصنع الرائق، والتدبير الفائق، لا يكاد يغفل عن كون صانعه جل وعلا محيطاً بكل أعماله ﴿ذلك بأن الله هو الحق﴾ أي ذلك الذي شاهدتموه من عجائب الصنع وباهر القدرة، لتتأكدوا أن الله هو الإله الحق الذي يجب أن يعبد وحده ﴿وأنَّ ما يدعون من دونه الباطل﴾ أي وأن كل ما يعبدون من دون الله من الأوثان والأصنام باطل لا حقيقة له كما قال لبيد «ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطل» فالجميع خلقه وعبيده، ولا يملك أحدٌ منهم تحريك ذرةٍ إلا بإذنه ﴿وأنَّ الله هو العلي الكبير﴾ أي وأنه تعالى هو العليُّ في صفاته، الكبير في ذاته ﴿ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله﴾ تذكيرٌ بنعمة أخرى أي ألم تر أيها العاقل أن السفن العظيمة تسير في البحر بقدرة الله، وبتسخيره ولطفه بالناس وإحسانه إليهم، لتهيئة أسباب الحياة قال ابن كثير: يخبر تعالى أنه هو الذي سخَّر البحر لتجري فيه الفلك بأمره أي بلطفه وتسخيره، فإنه لولا ما جعل في الماء من قوةٍ يحمل بها السفن ما جرت[٢]، ولهذا قال بعده ﴿ليريكم من آياته﴾ أي ليريكم عجائب صنعه، ودلائل قدرته ووحدانيته ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبَّار شكور﴾ أي إن في تسخير هذه السفن وما تحمله من الطعام والأرزاق والتجارات، لآيات باهرة، وعبراً جليلة لكل عبد منيب، صبَّار في الضراء، شكور في الرخاء. ولفظة «صبَّار» و«شكور» مبالغة في الصبر والشكر ﴿وإذا غشيهم موجٌ كالظلل﴾ أي وإذا علا المشركين وغطّاهم وهم في البحر موج كثيف كالجبال ﴿دعوا الله مُخلصين له الدِّين﴾ أي أخلصوا دعاءهم لله حين علموا أنه لا منجي لهم غيره فلا يدعون لخلاصهم سواه ﴿فلما نجَّاهم إلى البر﴾ أي فلما أنقذهم من شدائد البحر، وأخرجهم إلى شاطىء النجاة

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٢٥٩. (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٦٩.

﴿خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾

في البر ﴿فمنهم مقتصد﴾ في الآية حذف تقديره فمنهم مقتصد ، ومنهم جاحد ، ودلَّ عليه قوله ﴿وما يجحد بآياتنا﴾ والمقتصد : المتوسط في العمل قال ابن كثير : وهذا من باب الإنكار على من شاهد تلك الأهوال ، والأمور العظام ، ورأى الآيات الباهرة في البحر ، ثم بعدما أنعم الله عليه بالخلاص كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعمل التام ، والمبادرة إلى الخيرات ، والدؤوب في العبادات ، فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصّراً[١] ﴿وما يجحد بآياتنا إلا كلُّ ختَّار كفور﴾ أي وما يكذب بآياتنا إلا كل غدَّار،مبالغ في كفران نعم الله تعالى ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾ أي اتقوا ربكم بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ﴿واخشوا يوماً لا يجزي والدٌ عن ولده﴾ أي وخافوا يوماً رهيباً عصيباً لا ينفع والد فيه ولده، ولا يدفع عنه مضرةً، أو يقضي عنه شيئاً مما تحمَّله ﴿ولا مولودٌ هو جازٍ عن والده شيئاً﴾ أي ولا ولدٌ يغني أو يدفع عن والده شيئاً ، أو يقضي عنه شيئاً من جنايته ومظالمه قال الطبري : المعنى لا يغني ولا تنفع عنده الشفاعة والوسائل ، إلا وسيلة من صالح الأعمال التي أسلفها في الدنيا[٢] ﴿إن وعد الله حقٌّ﴾ أي وعده بالثواب والعقاب ، والبعث والجزاء حقٌّ لا يتخلف ﴿فلا تغرنكم الحياةُ الدنيا﴾ أي لا تخدعكم الحياة الدنيا بمفاتنها ولذاتها فتركنوا إليها ﴿ولا يغرنكم بالله الغَرور﴾ أي ولا يخدعنكم الشيطان الماكر الذي يغر الخلق ويمنيهم بأباطيله ويلهيهم عن الآخرة ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ هذه هي مفاتح الغيب التي اختص الله بعلمها وهي خمس كما جاء في الحديث الصحيح (مفاتح الغيب خمسٌ لا يعلمهن إلا الله وتلا الآية)[٣] أي عنده تعالى معرفة وقت قيام الساعة التي تقوم فيها القيامة ﴿ويُنزِّل الغيث﴾ أي وعنده معرفة وقت نزول المطر ومحل نزوله ﴿ويعلم ما في الأرحام﴾ أي من ذكر أو أنثى ، شقي أو سعيد ﴿وما تدري نفسٌ ماذا تكسب غداً﴾ أي ما يدري أحد ماذا يحدث له في غد ، وماذا يفعل من خير أو شر ﴿وما تدري نَفْس بأي أرض تموت﴾ أي كما لا يدري أحدٌ أين يموت ، ولا في أي مكانٍ يُقبر ﴿إن الله عليم خبير﴾ أي مبالغ في العلم ، يعلم كل الأمور ، خبير بظواهر الأشياء وبواطنها .

البَلاَغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الطباق بين قوله ﴿ظاهرة .. وباطنة﴾ وكذلك بين لفظ ﴿الحق .. والباطل﴾ .

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ٧٠ . (٢) الطبري ٢١/ ٥٥ . (٣) أخرجه البخاري .

٢ ـ الإنكار والتوبيخ مع الحذف ﴿أولو كان الشيطان يدعوهم﴾ أي أيتبعونهم ولو كان الشيطان الخ .

٣ ـ المجاز المرسل ﴿ومن يسلم وجهه﴾ أطلق الجزء وأراد الكل ففيه مجاز مرسل .

٤ ـ التشبيه التمثيلي ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ شبه من تمسك بالإسلام بمن أراد أن يرقى إلى شاهق جبل فتمسك بأوثق حبل ، وحذف أداة التشبيه للمبالغة .

٥ ـ المقابلة بين ﴿ومن يُسلم وجهه إلى الله وهو محسن﴾ وبين ﴿ومن كفر فلا يحزنك كفره﴾ الآية .

٦ ـ الاستعارة ﴿عذابٍ غليظ﴾ استعار الغلظ للشدة لأنه إنما يكون للاجرام فاستعير للمعنى .

٧ ـ تقديم ما حقه التأخير لإفادة الحصر ﴿وإلى الله عاقبة الأمور﴾ أي إليه لا إلى أحدٍ غيره .

٨ ـ صيغ المبالغة في التالي﴿صبَّار شكور﴾ و﴿ختار كفور﴾ و﴿عليم خبير﴾ و﴿سميع بصير﴾ كما أنَّ فيها توافق الفواصل وهو من المحسنات البديعية ويسمى بالسجع .

« تم تفسير سورة لقمان ولله الحمد والمنة »

* * *



بين يدي السورة

سورة السجدة مكية ، وهي كسائر السور المكية تعالج أصول العقيدة الإسلامية « الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، والكتب والرسل ، والبعث والجزاء » والمحور الذي تدور عليه السور الكريمة هو موضوع « البعث بعد الفناء » الذي طالما جادل المشركون حوله ، واتخذوه ذريعةً لتكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام .

* تبتدىء السورة الكريمةُ بدفع الشك والارتياب عن القرآن العظيم ، المعجزة الكبرى لرسول الله ﷺ ، الذي لا تحوم حول ساحته الشبهات والأباطيل ، ومع وضوح إعجازه ، وسطوع آياته ، وإشراقة بيانه ، وسموّ أحكامه ، اتهم المشركون الرسول بأنه افترى هذا القرآن ، واختلقه من تلقاء نفسه ، فجاءت السورة الكريمة تردُّ هذا البهتان ، بروائع الحجة والبرهان .

* ثم تحدثت السورة عن دلائل القدرة والوحدانية ، ببيان آثار قدرة الله في الكائنات العلوية والسفلية ، على طريقة القرآن في لفت الأنظار إلى إبداع الواحد القهار .

* ثم ذكر القرآن شبهة المشركين السخيفة في إنكارهم للبعث والنشور ، وردَّ عليها بالحجج القاطعة ، والأدلة الساطعة ، التي تنتزع الحجة من الخصم الجاحد العنيد ، فلا يلبث أن يقر على نفسه بالهزيمة أمام قوارع القرآن ، وروائع الحجة والبيان .

* وختمت السورة بالحديث عن يوم الحساب ، وما أعدَّ الله فيه للمؤمنين المتقين من النعيم الدائم في جنات الخلد ، وما أعده للمجرمين من العذاب والنكال في دار الجحيم .

التسمية : سميت « سورة السجدة » لما ذكر تعالى فيها من أوصاف المؤمنين الأبرار ، الذين إذا سمعوا آيات القرآن العظيم ﴿خرّوا سجداً وسبَّحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون﴾ .

* * *

قال الله تعالى :﴿آلم * تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين. . . إلى. . .جزاءً بما كانوايعملون﴾
(من آية ١ إلى آية ١٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾

اللغـــة : ﴿افتراه﴾ اختلق القرآن من تلقاء نفسه ﴿يعرج﴾ يصعد ويرتفع إليه ﴿يدبّر﴾ التدبير : رعايةُ شئون الغير ﴿سُلالة﴾ خلاصة[1] ﴿مهين﴾ ضعيف حقير ﴿سوَّاه﴾ قوَّمه بتصوير أعضائه وتكميلها ﴿ضللنا﴾ ضعنا وهلكنا وأصله من قول العرب : ضلَّ اللبن في الماء إذا ذهب وضاع ﴿ناكسوا﴾ مطرقوا يقال : نكس رأسه إذا أطرقه ﴿الجِنَّة﴾ الجن .

التفسيـــر : ﴿الـم﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن[2] ﴿تنزيل الكتاب لا ريب فيه من ربِّ العالمين﴾ أي هذا الكتاب الموحى به إليك يا محمد هو القرآن الذي لا شك أنه من عند الله عز وجل ، تنزيلٌ من رب العالمين ﴿أم يقولون افتراه﴾ الضمير يعود لكفار قريش و﴿أم﴾ بمعنى بل والهمزة أي بل أيقول المشركون اختلق محمد القرآن وافتراه من تلقاء نفسه ؟ لا ليس الأمر كما يدَّعون ﴿بل هو الحقُّ من ربك﴾ أي بل هو القول الحق ، والكلام الصدق المنزل من ربك قال البيضاوي : أشار أولاً إلى إعجازه ، ثم رتَّب عليه أنه تنزيلٌ من رب العالمين ، وقرر ذلك بنفي الريب عنه ، ثم أضرب عن ذلك إلى ما يقولون فيه على خلاف ذلك ، إنكاراً له وتعجباً منه ، ثم بين المقصود من إنزاله[3] بقوله ﴿لتنذر قوماً ما أتاهم من نذيرٍ من قبلك﴾ أي أنزله إليك لتنذر به قوماً ما جاءهم رسول قبلك يا محمد ، قال المفسرون : هم أهل الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام ، وقد جاء الرسل قبل ذلك كإبراهيم وهود وصالح ، ولكنْ لما طالت الفترة على هؤلاء أرسل الله إليهم محمداً ﷺ لينذرهم عذاب الله ، ويقيم عليهم الحجة بذلك ﴿لعلَّهم يهتدون﴾ أي كي يهتدوا إلى الحق ويؤمنوا بالله العزيز الحميد ، ثم شرع تعالى في ذكر أدلة التوحيد فقال ﴿اللهُ الذي خلق السموات والأرضَ وما بينهما في ستةِ أيام﴾ أي الله جلَّ وعلا هو الذي خلق السموات في ارتفاعها وإحكامها ، والأرض في عجائبها وإبداعها ، وما بينهما من المخلوقات في مقدار ستة أيام قال الحسن : من أيام الدنيا ولو شاء لخلقها بلمح البصر ولكن أراد أن يعلِّم عباده التأني في الأمور قال القرطبي : عرَّفهم تعالى كمال قدرته ليسمعوا القرآن ويتأملوه ، ومعنى ﴿خلق﴾ أبدع وأوجد بعد العدم ، وبعد أن لم تكن شيئاً[4] ﴿ثم استوى على العرش﴾ استواءً يليق

---

(١) انظر معنى السلالة بالتوضيح في سورة المؤمنون . (٢) انظر ما كتبناه حول الحروف المقطعة في أول سورة البقرة ففيه غنية وكفاية .
(٣) البيضاوي ٢/ ١١١ . (٤) القرطبي ١٤/ ٨٦ .

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾

بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل[١] ﴿ما لكم من دونه من وليٍّ ولا شفيع﴾ أي ليس لكم أيها الناسُ من غير الله ناصرٌ يمنعكم من عذابه ، ولا شفيع يشفع لكم عنده إلا بإذنه ، بل هو الذي يتولى مصالحكم ويدبر أموركم ﴿أفلا تتذكرون﴾ ؟ أي أفلا تتدبرون هذا فتؤمنون ؟ ﴿يُدبِّر الأمر من السماء إلى الأرض﴾ أي يدبِّر أمر الخلائق جميعاً في العالم العلوي والسفلي ، لا يُهمل شأن أحد قال ابن عباس : أي ينزل القضاء والقدر من السماء إلى الأرض ، ويُنزل ما دبره وقضاه ﴿ثم يعرج إليه﴾ أي ثم يصعد إليه ذلك الأمر كله يوم القيامة ليفصل فيه ﴿في يوم كان مقداره ألف سنةٍ مِمَّا تعدون﴾ أي في يوم عظيم - هو يوم القيامة - طوله ألف سنة من أيام الدنيا لشدة أهواله ﴿ذلك عالمُ الغيب والشهادة﴾ أي ذلك المدبر لأمور الخلق هو العالم بكل شيء ، يعلم ما هو غائب عن المخلوقين ، وما هو مشاهد لهم قال القرطبي : وفي الآية معنى التهديد والوعيد ، كأنه يقول : أخلصوا أعمالكم وأقوالكم فإني مجازيكم عليها ، ومعنى « الغيب والشهادة » ما غاب عن الخلق وما حضرهم[٢] ﴿العزيز الرحيم﴾ أي الغالب على أمره ، الرحيم بعباده في تدبيره لشئونهم ﴿الذي أحسنَ كلَّ شيء خلقه﴾ أي أتقن وأحكم كل شيءٍ أوجده وخلقه قال أبو حيان : وهذا أبلغ في الامتنان ومعناه أنه وضع كل شيء في موضعه ، ولهذا قال ابن عباس : ليست القردة بحسنة ، ولكنها متقنةٌ محكمة[٣] قال بعض العلماء : لو تصورتَ مثلاً أن للفيل مثل رأس الجمل ، وأنَّ للأرنب مثل رأس الأسد ، وأنَّ للإنسان مثل رأس الحمار ، لوجدت في ذلك نقصاً كبيراً ، وعدم تناسب وانسجام ، ولكنك إذا علمت أن طول عنق الجمل ، وشقَّ شفته ليسهل تناوله الكلأ عليه أثناء السير ، وأن الفيل لولا خرطومه الطويل لما استطاع أن يبرك بجسمه الكبير لتناول طعامه وشرابه ، لو علمتَ كل هذا لتيقنتَ أنه صنع الله الذي أتقن كل شيء ، ولقلت : تبارك الله أحسن الخالقين[٤] . ﴿وبدأ خلق الإنسان من طين﴾ أي خلق أبا البشر آدم من طين ﴿ثم جعل نسله من سُلالة من ماءٍ مهين﴾ أي جعل ذريته يتناسلون من خلاصة من ماءٍ ضعيف حقير هو المنيُّ ﴿ثم سوَّاه ونفخ فيه من روحه﴾ أي قوَّم أعضاءه ، وعدَّل خلقته في رحم أُمه ، ونفخ بعد ذلك فيه الروح ، فإذا هو في أكمل صورةٍ وأحسن تقويم قال أبو السعود : وأضاف الروح إليه تعالى تشريفاً للإنسان ، وإيذاناً بأنه خلقٌ عجيب ، وصنعٌ بديع ، وأن له شأناً جليلةً مناسبةً إلى حضرة الربوبية[٥] ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ أي

---

(١) انظر تفصيل معنى الاستواء وأقوال السلف في سورة الأعراف . (٢) القرطبي ١٤/ ٨٩ . (٣) البحر ٧/ ١٩٩ .
(٤) نقلاً عن أوضح التفاسير . (٥) أبو السعود ٤/ ١٩٦ .

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾

وخلق لكم هذه الحواس : السمع لتسمعوا به الأصوات ، والبصر لتبصروا به الأشخاص ، والعقل لتدركوا به الحق والهدى ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ أي قليلاً شكركم لربكم و﴿ما﴾ لتأكيد القلة ﴿وقالوا أئذا ضللنا في الأرض﴾ أي وقال كفار مكة المنكرون للبعث والنشور : أئذا هلكنا وصارت عظامنا ولحومنا تراباً مختلطاً بتراب الأرض حتى غابت فيه ولم تتميز عنه ﴿أئنا لفي خلقٍ جديد﴾ أي سوف نخلق بعد ذلك خلقاً جديداً ، ونعود إلى الحياة مرةً ثانية ؟ وهو استبعادٌ للبعث مع الاستهزاء ولهذا قال تعالى ﴿بل هم بلقاء ربهم كافرون﴾ أي بل هناك ما هو أبلغ وأشنع من الاستهزاء ، وهو كفرهم وجحودهم بلقاء الله في دار الجزاء ﴿قل يتوفاكم ملكُ الموتِ الذي وُكِّل بكم﴾ أي قل لهم رداً على مزاعمهم الباطلة : يتوفاكم ملك الموت الذي وكِّل بقبض أرواحكم هو وأعوانه ﴿ثم إلى ربكم ترجعون﴾ أي ثم مرجعكم إلى الله يوم القيامة للحساب والجزاء قال ابن كثير : والظاهر أنَّ ملك الموت شخص معين ، وقد سُمي في بعض الآثار بـ « عزرائيل » وهو المشهور ، وله أعوان ـ كما ورد في الحديث ـ ينتزعون الأرواح من سائر الجسد ، حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت[1] وقال مجاهد :جُمِعت له الأرض فجعلت مثل الطست يتناول منها حيث يشاء[2] ، ثم أخبر تعالى بحال المجرمين يوم القيامة وما هم فيه من الذل والهوان فقال ﴿ولو ترى إذِ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم﴾ أي ولو ترى أيها المخاطب حال المجرمين يوم القيامة وهم مطرقو رءوسهم أمام ربهم من الخجل والحياء لرأيت العجب العجاب قال أبو السعود : وجواب ﴿لو﴾ محذوفٌ تقديره لرأيت أمراً فظيعاً لا يُقادر قدره من هوله وفظاعته[3] ﴿ربَّنا أبصرنا وسمعنا﴾ أي يقولون ربنا أبصرنا حقيقة الأمر وسمعنا ما كنا ننكر من أمر الرسل ، وكنا عُمياً وصُماً ﴿فارجعنا نعمل صالحاً﴾ أي فردنا إلى دار الدنيا لنعمل صالحاً ﴿إنّا موقنون﴾ أي فنحن الآن مصدِّقون تصديقاً جازماً ، وموقنون أن وعدك حق ، ولقاءك حق قال الطبري : أي أيقنا الآن بوحدانيتك ، وأنه لا يصلح أن يُعبد سواك ، ولا ينبغي أن يكون رب سواك ، وأنك تحيي وتميت وتفعل ما تشاء[4] ، قال تعالى رداً عليهم ﴿ولو شئنا لآتينا كلَّ نفسٍ هُداها﴾ أي لو أردنا هداية جميع الخلق لفعلنا ولكنَّ ذلك ينافي حكمتنا ، لأنا نريد منهم الإيمان بطريق الاختيار ، لا بطريق الإكراه والإجبار ﴿ولكن حقَّ القول مني﴾ أي ولكن ثبت ووجب قولي بعذاب المجرمين ، وتقرر وعيدي ﴿لأملأنَّ جهنم من الجِنَّة والناس أجمعين﴾ أي لاملأنَّ جهنم بالعصاة من الجنِّ والإنس جميعاً ﴿فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم

(١) مختصر ابن كثير ٣/٧٣ . (٢) الطبري ٢١/٦٢ . (٣) أبو السعود ٤/١٩٧ . (٤) الطبري ٢١/٦٢ .

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾

أي قبل العذاب الأكبر الذي ينتظرهم وهو عذاب الآخرة ﴿لعلهم يرجعون﴾ أي لعلهم يتوبون عن الكفر والمعاصي ، ثم بعد أن توعدهم وهددهم بيَّن استحقاقهم للعذاب فقال ﴿ومن أظلمُ ممَّن ذُكِّر بآيات ربِّه ثُم أعرض عنها﴾ أي لا أحد أظلم لنفسه مِمَّن وعظ وذكر بآيات الرحمن ، ثم ترك الإيمان وتناساها ؟ ﴿إنَّا من المجرمين منتقمون﴾ أي سأنتقم ممن كذَّب بآياتي أشدَّ الانتقام ، ووضع الاسم الظاهر مكان الضمير لتسجيل الإجرام عليهم ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ أي أعطينا موسى التوراة ﴿فلا تكنْ في مريةٍ من لقائه﴾ أي فلا تكن يا محمد في شكٍ من تلقي القرآن[1] كما تلقَّى موسى التوراة ، والمقصود تقرير رسالته عليه السلام ، وتحقيق أن ما معه من الكتاب وحيٌ سماويٌ وكتابٌ إلهي ﴿وجعلناه هدى لبني إسرائيل﴾ أي جعلنا التوراة هدايةً لبني إسرائيل من الضلالة ﴿وجعلنا منهم أئمة﴾ أي جعلنا منهم قادةً وقدوة يقتدى بهم في الخير ﴿يهدون بأمرنا﴾ أي يدعون الخلق إلى طاعتنا ويرشدونهم إلى الدين بأمرنا وتكليفنا ﴿لمَّا صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ أي حين صبروا على تحمل المشاقِّ في سبيل الله ، وكانوا يصدقون بآياتنا أشد التصديق وأبلغه قال ابن الجوزي : وفي هذا تنبيه لقريش أنكم إن أطعتم وآمنتم جعلت منكم أئمة[2] ﴿إنَّ ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ أي إن ربك يا محمد يقضي ويحكم بين المؤمنين والكفار ، فيميز بين المحقِّ والمبطل يوم القيامة ، ويجازي كلاً بما يستحق ، فيما اختلفوا فيه من أمور الدين قال الطبري : فيما كانوا فيه يختلفون من أمور الدين ، والبعث ، والثواب والعقاب[3] ، ثم نبه تعالى على آثار قدرته في مخلوقاته ، وأقام الحجة على الكفار بالأمم السالفة الذين كفروا فأهلكوا فقال ﴿أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون﴾ أي أغفل هؤلاء المشركون ولم يتبيَّن لهم كثرة من أهلكناهم من الأمم الماضية الذين كذبوا رسل الله ؟ ﴿يمشون في مساكنهم﴾ أي حال كون أهل مكة يسيرون في دورهم ، ويشاهدون في أسفارهم منازل هؤلاء المهلكين أفلا يعتبرون ؟ قال ابن كثير : أي وهؤلاء المكذبون يمشون في مساكن أولئك الظالمين ، فلا يرون فيها أحداً ممن كان يسكنها ويعمرها[4] ﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ أفلا يسمعون﴾ أي إن في إهلاكهم لدلالات عظيمة على قدرتنا ،

(١) ذهب بعض المفسرين إلى أن الضمير يعود إلى موسى أي فلا تكن في شك من لقاء موسى ، وما ذكرناه أرجح وهو اختيار البيضاوي وأبو السعود . (٢) زاد المسير ٦/ ٣٤٤ . (٣) الطبري ٢١/ ٧١ . (٤) مختصر ابن كثير ٣/ ٧٧ .

أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ

نباتها أي قطع ، إمّا لعدم الماء أو لأنه رُعي وأزيل ، ولا يقال للتي لا تنبتُ كالسباخ جُرز[1] ﴿الفتح﴾ الحكم ويقال للحاكم : فاتح وفتاح لأنه يفصل بين الناس بحكمه ﴿يُنظرون﴾ يمهلون ويؤخرون .

سَبَبُ النُّزول : روي أنه كان بين « علي بن أبي طالب » و « عُقبة بن أبي مُعيط » تنازع وخصومة ، فقال الوليد بن عُقبة لعلي : أُسكت فإنك صبيٌ ، وأنا والله أبسط منك لساناً ، وأشجع منك جناناً ، وأملأ منك حشواً في الكتيبة ، فقال له علي : اسكتْ فإنك فاسق فنزلت ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون﴾[2] .

التفسير : ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً﴾ ؟ أي أفمن كان في الحياة الدنيا مؤمناً متقياً لله ، كمن كان فاسقاً خارجاً عن طاعة الله ؟ ﴿لا يستوون﴾ أي لا يستوون في الآخرة بالثواب والكرامة ، كما لم يستووا في الدنيا بالطاعة والعبادة ، وهذه الآية كقوله تعالى ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين﴾ ؟ قال ابن كثير : يخبر تعالى عن عدله وكرمه ، أنه لا يساوي في حكمه يوم القيامة ، من كان مؤمناً بآياته متبعاً لرسله ، بمن كان فاسقاً أي خارجاً عن طاعة ربه ، مكذباً رسل الله[3] ، ثم فصَّل تعالى جزاء الفريقين فقال ﴿أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي أما المتقون الذين جمعوا بين الإِيمان والعمل الصالح ﴿فلهم جناتُ المأوى﴾ أي لهم الجنات التي فيها المساكن والدور والغرف العالية يأوون إليها ويستمتعون بها قال البيضاوي : فالجنة هي المأوى الحقيقي ، والدنيا منزل مرتحلٌ عنه لا محالة[4] ﴿نُزلاً بما كانوا يعملون﴾ أي ضيافةً مهيأةً ومعدةً لإكرامهم كما تهيأ التُحف للضيف وذلك بسبب ما قدموه من صالح الأعمال ﴿وأما الذين فسقوا فمأواهم النار﴾ أي وأمّا الذين خرجوا عن طاعة الله فملجؤهم ومنزلهم نار جهنم ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها أُعيدوا فيها﴾ أي إذا دفعهم لهب النار إلى أعلاها ردّوا إلى موضعهم فيها قال الفُضيل بن عياض : والله إن الأيدي لموثقة ، وإنَّ الأرجل لمقيَّدة ، وإنَّ اللهب ليرفعهم والملائكة تقمعهم[5] ﴿وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون﴾ أي وتقول لهم خزنة جهنم تقريعاً وتوبيخاً : ذوقوا عذاب النار المخزي الذي كنتم تكذبون به في الدنيا وتهزءون منه ، ثم توعدهم بعذاب عاجلٍ في الدنيا فقال ﴿ولنذيقنَّهم من العذاب الأدنى﴾ أي ولنذيقنّهم من العذاب الأقرب وهو عذاب الدنيا من القتل والأسر والبلايا والمحن قال الحسن : العذاب الأدنى : مصائب الدنيا وأسقامها مما يُبتلى به العبيد حتى يتوبوا وقال أبو مجاهد : القتل والجوع[6] ﴿دون العذاب الأكبر﴾

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٠٨ . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٢٦٥ وانظر القرطبي ١٤/ ١٠٥ وزاد المسير ٦/ ٣٤٠ .

(٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٧٦ . (٤) البيضاوي ٢/ ١١٢ . (٥) المختصر ٣/ ٧٦ .

(٦) قال المفسرون : أصاب أهل مكة القحط والجدب سبع سنين حتى أكلوا فيها الجيف والعظام والكلاب .

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢١ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ۝٢٢ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٢٣ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٢٥ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ۝٢٦﴾

أي قبل العذاب الأكبر الذي ينتظرهم وهو عذاب الآخرة ﴿لعلهم يرجعون﴾ أي لعلهم يتوبون عن الكفر والمعاصي ، ثم بعد أن توعدهم وهددهم بيَّن استحقاقهم للعذاب فقال ﴿ومن أظلمُ ممَّن ذُكِّر بآيات ربِّه ثُم أعرض عنها﴾ أي لا أحد أظلم لنفسه ممَّن وعظ وذكر بآيات الرحمن ، ثم ترك الإيمان وتناساها ؟ ﴿إنَّا من المجرمين منتقمون﴾ أي سأنتقم ممن كذَّب بآياتي أشدَّ الانتقام ، ووضع الاسم الظاهر مكان الضمير لتسجيل الإجرام عليهم ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ أي أعطينا موسى التوراة ﴿فلا تكنْ في مريةٍ من لقائه﴾ أي فلا تكن يا محمد في شكٍ من تلقي القرآن[١] كما تلقَّى موسى التوراة ، والمقصود تقرير رسالته عليه السلام ، وتحقيق أن ما معه من الكتاب وحيٌ سماويٌ وكتابٌ إلهي ﴿وجعلناه هدى لبني إسرائيل﴾ أي جعلنا التوراة هدايةً لبني إسرائيل من الضلالة ﴿وجعلنا منهم أئمة﴾ أي جعلنا منهم قادةً وقدوة يقتدى بهم في الخير ﴿يهدون بأمرنا﴾ أي يدعون الخلقَ إلى طاعتنا ويرشدونهم إلى الدين بأمرنا وتكليفنا ﴿لمَّا صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ أي حين صبروا على تحمل المشاقِّ في سبيل الله ، وكانوا يصدقون بآياتنا أشد التصديق وأبلغه قال ابن الجوزي : وفي هذا تنبيه لقريش أنكم إن أطعتم وآمنتم جعلت منكم أئمة[٢] ﴿إنَّ ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ أي إن ربك يا محمد يقضي ويحكم بين المؤمنين والكفار ، فيميز بين المحقِّ والمبطل يوم القيامة ، ويجازي كلاً بما يستحق ، فيما اختلفوا فيه من أمور الدين قال الطبري : فيما كانوا فيه يختلفون من أمور الدين ، والبعث ، والثواب والعقاب[٣] ، ثم نبه تعالى على آثار قدرته في مخلوقاته ، وأقام الحجة على الكفار بالأمم السالفة الذين كفروا فأُهلكوا فقال ﴿أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون﴾ أي أغفل هؤلاء المشركون ولم يتبيَّن لهم كثرة من أهلكناهم من الأمم الماضية الذين كذبوا رسل الله ؟ ﴿يمشون في مساكنهم﴾ أي حال كون أهل مكة يسيرون في دورهم ، ويشاهدون في أسفارهم منازل هؤلاء المهلكين أفلا يعتبرون ؟ قال ابن كثير : أي وهؤلاء المكذبون يمشون في مساكن أولئك الظالمين ، فلا يرون فيها أحداً ممن كان يسكنها ويعمرها[٤] ﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ أفلا يسمعون﴾ أي إن في إهلاكهم لدلالات عظيمة على قدرتنا ،

(١) ذهب بعض المفسرين إلى أن الضمير يعود إلى موسى أي فلا تكن في شك من لقاء موسى ، وما ذكرناه أرجح وهو اختيار البيضاوي وأبو السعود . (٢) زاد المسير ٦/ ٣٤٤ . (٣) الطبري ٢١/ ٧١ . (٤) مختصر ابن كثير ٣/ ٧٧ .

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (٣٠)﴾

أفلا يسمعون سماع تدبر واتعاظ؟ ثم ذكر تعالى دلائل الوحدانية فقال ﴿أولم يروا أنّا نسوقُ الماء إلى الأرض الجُرُز﴾ أي أولم يشاهدوا كمال قدرتنا في سوقنا الماء إلى الأرض اليابسة التي لا نبات فيها من شدة العطش لنحييها؟ ﴿فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم﴾ أي فنخرج بذلك الماء أنواع الزروع والثمار، تأكل منه دوابهم من الكلأ والحشيش، وأنفسهم من الحب والخضر والفواكه والبقول ﴿أفلا يبصرون﴾ أي أفلا يبصرون ذلك فيستدلون به على كمال قدرته تعالى وفضله، ويعلمون أن الذي أحيا الأرض الميتة قادر على إعادتهم بعد وفاتهم؟ ﴿ويقولون متى هذا الفتحُ إن كنتم صادقين﴾ أي ويقول كفار مكة للمسلمين على سبيل السخرية والتهكم: متى ستنصرون علينا ويكون لكم الغلبة والفتح علينا؟ إن كنتم صادقين في دعواكم قال الصاوي: كان المسلمون يقولون إن الله سيفتح لنا على المشركين، ويفصل بيننا وبينهم، وكان أهل مكة إذا سمعوهم يقولون بطريق الاستعجال تكذيباً واستهزاءً: متى هذا الفتح فنزلت[1] ﴿قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانُهم﴾ أي قل لهم يا محمد توبيخاً وتبكيتاً: إن يوم القيامة هو يوم الفتح الحقيقي الذي يفصل تعالى فيه بيننا وبينكم، ولا ينفع فيه الإيمان ولا الاعتذار فلماذا تستعجلون؟ ﴿ولا هم يُنظرون﴾ أي ولا هم يؤخرون ويمهلون للتوبة قال البيضاوي: ويوم الفتح هو يوم القيامة فإنه يوم نصر المؤمنين على الكافرين والفصل بينهم، وقيل هو يوم بدر[2] ﴿فأعرضْ عنهم﴾ أي فأعرضْ يا محمد عن هؤلاء الكفار ولا تبالِ بهم ﴿وانتظرْ إنهم منتظرون﴾ أي وانتظر ما يحل بهم من عذاب الله، إنهم منتظرون كذلك ما يحل بكم قال القرطبي: أي ينتظرون بكم حوادث الزمان[3].

* * *

البلاغة: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

١ - جناس الاشتقاق مثل ﴿تُنذر.. ونذير﴾ وكذلك مثل ﴿انتظر.. إنهم منتظرون﴾.

٢ - الطباق بين ﴿الغيب.. والشهادة﴾ وبين ﴿خوفاً.. وطمعاً﴾.

٣ - الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿وجعل لكم﴾ والأصل «وجعل له» والنكتة أن الخطاب إنما يكون مع الحيّ فلما نفخ تعالى الروح فيه حسن خطابه مع ذريته.

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٢٢٦. (٢) البيضاوي ٢/ ١١٣. (٣) القرطبي ١٤/ ١١٢.

٤ - الاستفهام الإنكاري وغرضه الاستهزاء ﴿أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلقٍ جديد﴾ ؟

٥ - الإضمار ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا﴾ أي يقولون ربنا أبصرنا وسمعنا .

٦ - الاختصاص ﴿ثم إلى ربكم ترجعون﴾ أي إليه لا إلى غيره مرجعكم يوم القيامة .

٧ - حذف جواب لو للتهويل ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم﴾ أي لرأيت أمراً مهولاً .

٨ - المشاكلة وهي الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى ﴿نسيتم لقاء يومكم . . إنا نسيناكم﴾ فإن الله تعالى لا ينسى وإنما المراد نترككم في العذاب ترك الشيء المنسي .

٩ - المقابلة اللطيفة بين جزاء الأبرار وجزاء الفجار ﴿أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى . .﴾ ﴿وأما الذين فسقوا فمأواهم النار﴾ وهو من المحسنات البديعية .

١٠ - الكناية عن كثرة العبادة والتبتل ليلاً ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ .

١١ - الاستفهام للتقريع والتوبيخ ﴿أولم يهد لهم﴾ ؟ ﴿أولم يروا أنا نسوق الماء﴾ ؟ ﴿أفلا يسمعون﴾ ؟ ﴿أفلا يبصرون﴾ وكلها بقصد الزجر والتوبيخ .

١٢ - السجع مراعاةً للفواصل ورءوس الآيات مثل ﴿إنا موقنون* وهم لا يستكبرون* لعلهم يرجعون* أفلا يسمعون﴾ وهذا من المحسنات البديعية وهو كثير في القرآن الكريم .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة السجدة »

* * *



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَة

* سورة الأحزاب من السور المدنية ، التي تتناول الجانب التشريعي لحياة الأمة الإسلامية ، شأن سائر السور المدنية ، وقد تناولت حياة المسلمين الخاصة والعامة ، وبالأخص أمر الأسرة فشرعت الأحكام بما يكفل للمجتمع السعادة والهناء ، وأبطلت بعض التقاليد والعادات الموروثة مثل « التبني ، والظهار ، واعتقاد وجود قلبين لإنسان » وطهرت من رواسب المجتمع الجاهلي ، ومن تلك الخرافات والأساطير الموهومة التي كانت متفشية في ذلك الزمان .

* ويمكن أن نلخص المواضيع الكبرى لهذه السورة الكريمة في نقاط ثلاث :

أولاً : التوجيهات والآداب الإسلامية .

ثانياً : الأحكام والتشريعات الإلهية .

ثالثاً . الحديث عن غزوتي « الأحزاب ، وبني قريظة » .

* أما الأولى : فقد جاء الحديث عن بعض الآداب الاجتماعية كآداب الوليمة ، وآداب الستر والحجاب وعدم التبرج ، وآداب معاملة الرسول ﷺ واحترامه إلى آخر ما هنالك من آداب اجتماعية .

* وأما الثانية : فقد جاء الحديث عنها في بعض الأحكام التشريعية مثل حكم الظهار والتبني ، والإرث ، وزواج مطلقة الابن من التبني ، وتعدد زوجات الرسول الطاهرات والحكمة منه ، وحكم الصلاة على الرسول ﷺ وحكم الحجاب الشرعي ، والأحكام المتعلقة بأمور الدعوة إلى الوليمة إلى غير ما هنالك من أحكام تشريعية .

* وأما الثالثة : فقد تحدثت السورة بالتفصيل عن غزوة الخندق التي تسمى « غزوة الأحزاب » وصوَّرتها تصويراً دقيقاً بتألب قوى البغي والشر على المؤمنين ، وكشفت عن خفايا المنافقين ، وحذرت من طرقهم في الكيد والتخذيل والتثبيط ، وأطالت الحديث عنهم في بدء السورة وفي ختمها ، حتى لم تُبقَ لهم

ستراً ، ولم تخف لهم مكراً ، وذكرت المؤمنين بنعمة الله العظمى عليهم في ردّ كيد أعدائهم بإرسال الملائكة والريح ، كما تحدثت عن غزوة بني قريظة ونقض اليهود عهدهم مع الرسول ﷺ .

التسمية : سميت سورة الأحزاب لأن المشركين تحزبوا على المسلمين من كل جهة ، فاجتمع كفار مكة مع غطفان وبني قريظة وأوباش العرب على حرب المسلمين ، ولكن الله ردَّهم مدحورين وكفى المؤمنين القتال بتلك المعجزة الباهرة .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين .. إلى .. ما قاتلوا إلا قليلاً﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٢٠) .

اللغة : ﴿أدعياءكم﴾ جمع دعيٍّ وهو الولد المتبنَّى من أبناء الغير قال في اللسان : والدَّعيُّ : المنسوب إلى غير أبيه قال الشاعر :

دعيُّ القوم ينصرُ مدَّعيهِ ليُلْحقه بذي النَّسب الصَّميم
أبي الإسلامُ لا أبَ لي سِواه إذا افتخروا بقيسٍ أو تميم

﴿أقسط﴾ أعدلُ يقال : أقسطَ الرجلُ إذا عدل ، وقسطَ إذا ظلم ، والقسطُ : العدلُ ﴿مسطوراً﴾ أي مسطَّراً مكتوباً لا يُمحى ﴿ميثاقهم﴾ الميثاقُ : العهد المؤكد بيمين أو نحوه ﴿الحناجر﴾ جمع حَنْجرة وهي نهاية الحلقوم مدخل الطعام والشراب ﴿يثرب﴾ اسم المدينة المنورة وسمَّاها رسول الله ﷺ طيبة ﴿عورة﴾ خالية من الرجال غير محصَّنة يقال : دارٌ مُعْوِرة إذا كان يسهل دخولُها قال الجوهري : العَوْرة كلُّ خلل يُتخوف منه في ثَغر أو حرب[1] ﴿أقطارها﴾ جمع قُطْر وهو الناحية والجانب ﴿يعصمكم﴾ يمنعكم ﴿المعوِّقين﴾ المثبطين مشتق من عاقه إذا صرفه .

سَبَبُ النّزول : أ ـ روي أن رجلاً من قريش يُدعى (جميل بن مَعْمر) كان لبيباً حافظاً لما يسمع فقالت قريش : ما حفظ هذه الأشياء إلا وله قلبان في جوفه فأنزل الله ﴿ما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه ..﴾[2] الآية .

ب ـ وروي أن النبي ﷺ لما أراد غزوة تبوك أمر الناس بالتجهز والخروج لها ، فقال أناس : نستأذن آباءنا وأمهاتنا فأنزل الله ﴿النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم ..﴾[3] الآية .

---

(١) الصحاح مادة عور . (٢) زاد المسير ٦/ ٣٤٩ . (٣) الألوسي ٢١/ ١٥١ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا

التفسير : ﴿يا أيها النبيُّ اتقِ الله﴾ النداء على سبيل التشريف والتكرمة لأن لفظ النبوة مشعر بالتعظيم والتكريم أي اثبتْ على تقوى الله ودُمْ عليها قال أبو السعود : في ندائهﷺ بعنوان النبوة تنويهٌ بشأنه ، وتنبيهٌ على سمو مكانه ، والمراد بالتقوى المأمور به الثباتُ عليه والازديادُ منه ، فإنَّ له باباً واسعاً ومكاناً عريضاً لا يُنال مداه[1] ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾ أي ولا تطع أهل الكفر والنفاق فيما يدعونك إليه من اللين والتساهل ، وعدم التعرض لآلهتهم بسوء ، ولا تقبل أقوالهم وإن أظهروا أنها نصيحة قال المفسرون : دعا المشركون رسول اللهﷺ أن يرفض ذكر آلهتهم بسوء ، وأن يقول إن لها شفاعة فكرهﷺ ذلك ونزلت الآية[2] ﴿إنَّ اللهَ كان عليماً حكيماً﴾ أي إنه تعالى عالم بأعمال العباد وما يضمرونه في نفوسهم ، حكيم في تدبير شئونهم ﴿واتَّبعْ ما يُوحى إليك من ربك﴾ أي واعمل بما يوحيه إليك ربك من الشرع القويم ، والدين الحكيم ، واستمسك بالقرآن المنزل عليك ﴿إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ أي خبيرٌ بأعمالكم لا تخفى عليه خافية من شئونكم ، وهو مجازيكم عليها ﴿وتوكَّلْ على اللهِ﴾ أي اعتمد عليه ، والجأ في جميع أمورك إليه ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ أي وحسبك أن يكون الله حافظاً وناصراً لك ولأصحابك ، ثم ردَّ تعالى مزاعم الجاهليين ببيان الحق الساطع فقال ﴿ما جعل اللهُ لرجلٍ من قلبين في جوفه﴾ أي ما خلق الله لأحدٍ من الناس أياً كان قلبين في صدره ، قال مجاهد : نزلت في رجلٍ من قريش كان يُدعى « ذا القلبين » من دهائه ، وكان يقول : إنَّ في جوفي قلبين أعقل بكلِ واحدٍ منهما أفضل من عقل محمد[3] ﴿وما جعل أزواجكمُ اللّائي تُظاهرون مِنهنَّ أمهاتكم﴾ أي وما جعل زوجاتكم اللواتي تظاهرون منهنَّ أمهاتكم قال ابن الجوزي : أعلمَ تعالى أن الزوجة لا تكونُ أُماً ، وكانت الجاهلية تُطلّق بهذا الكلام وهو أن يقول لها : أنتِ عليَّ كظهر أمي[4] ﴿وما جعلَ أدعياءكم أبناءكم﴾ أي وما جعل الأبناء من التبني الذين ليسوا من أصلابكم أبناءً لكم حقيقةً ﴿ذلكم قولُكم بأفواهكم﴾ أي دعاؤ هم أبناء مجرد قول بالفم لا حقيقة له من الواقع ﴿والله يقول الحقَّ﴾ أي والله تعالى يقول الحقَّ الموافق للواقع ،

(١) أبو السعود ٤/ ٢٠١ . (٢) انظر القرطبي ١٤/ ١١٥ وزاد المسير ٦/ ٣٤٧ . (٣) القرطبي ١٤/ ١١٦ . (٤) زاد المسير ٦/ ٣٥٠ .

﴿ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى﴾

والمطابق له من كل الوجوه ﴿وهو يهدي السبيل﴾ أي يرشد إلى الصراط المستقيم ، والغرضُ من الآية التنبيهُ على بطلان مزاعم الجاهلية ، فكما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه ، فكذلك لا يمكن أن تصبح الزوجة المظاهر منها أماً ، ولا الولد المتبنَّى ابناً ، لأن الأم الحقيقية هي التي ولدته ، والابن الحقيقي هو الذيوُلـد من صلب الرجل ، فكيف يجعلون الزوجات المظاهر منهن أمهات ؟ وكيف يجعلون أبناء الآخرين أبناءً لهم مع أنهم ليسوا من أصلابهم ؟ ثم أمر تعالى بردّ نسب هؤلاء إلى آبائهم فقال ﴿أُدعوهم لآبائهم هو أقسطُ عند الله﴾ أي انسبوا هؤلاء الذين جعلتموهم لكم أبناء لآبائهم الأصلاء ﴿هو أقسطُ عند الله﴾ أي هو أعدلُ وأقسط في حكم اللهوشرعه[١] قال ابن جرير : أي دعاؤكم إياهم لآبائهم هو أعدل عند الله وأصدقُ وأصوب من دعائكم إياهم لغير آبائهم[٢] ﴿فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين﴾ أي فإن لم تعرفوا آباءهم الأصلاء فتنسبوهم إليهم فهم إخوانكم في الإسلام ﴿ومواليكم﴾ أي أولياؤكم في الدين ، فليقل أحدكم : يا أخي ويا مولاي يقصد أخوَّة الدين وولايته قال ابن كثير : أمر تعالى بردّ أنساب الأدعياء إلى آبائهم إن عُرفوا ، فإن لم يُعرفوا فهم إخوانهم في الدين ومواليهم ، عوضاً عما فاتهم من النسب ، ولهذا قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة : « أنت أخونا ومولانا »[٣] وقال ابن عمر : ما كنا ندعو « زيد بن حارثة » إلا زيد بن محمد حتى نزلت ﴿أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾[٤] ﴿وليس عليكم جناحٌ فيما أخطأتم به﴾ أي وليس عليكم أيها المؤمنون ذنبٌ أو إثم فيمن نسبتموهم إلى غير آبائهم خطأً ﴿ولكنْ ما تعمَّدتْ قلوبُكم﴾ أي ولكنَّ الإثم فيما تقصدتم وتعمدتم نسبته إلى غير أبيه ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي واسع المغفرة عظيم الرحمة ، يعفو عن المخطىء ويرحم المؤمن التائب ، ثم بيَّن تعالى شفقة الرسول ﷺ على أمته ونصحه لهم فقال ﴿النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ أي هو عليه السلام أرأف بهم وأعطف عليهم ، وأحقُّ بهم من أنفسهم في كل شيء من أمور الدين والدنيا ، وحكمه أنفذ وطاعته أوجب ﴿وأزواجُه أُمهاتُهم﴾ أي وزوجاتُه الطاهرات أمهات للمؤمنين في وجوب تعظيمهن واحترامهن ، وتحريم نكاحهنَّ قال أبو السعود : أي منزّلات منزلة الأمهات ، في التحريم واستحقاق التعظيم ، وأما فيما عدا ذلك فهنَّ كالأجنبيات[٥] ﴿وأُولوا الأرحام﴾ أي أهل القرابات ﴿بعضُهم أولى ببعضٍ في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين﴾ أي أحقُّ بالإرث من المهاجرين والأنصار في شرع الله ودينه

(١) نقلاً عن كتابنا تفسير آيات الأحكام ٢/ ٢٥٤ . (٢) الطبري ٢١/ ٧٦ . (٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٧٩ ابن كثير ٣/ ٨١ . (٤) أخرجه البخاري . (٥) أبو السعود ٢٠٣/٤ .

﴿ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ۝٦ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٧ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ﴾

﴿إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً﴾ أي إلاّ أن تحسنوا إلى إخوانكم المؤمنين والمهاجرين في حياتكم ، أو توصوا إليهم عند الموت فإن ذلك جائز ، وبسط اليد بالمعروف مما حثَّ الله عباده عليه قال المفسرون : وهذا نسخٌ لما كان في صدر الإسلام من توارث المسلمين من بعضهم بالأخوة الإيمانية وبالهجرة ونحوها[1] **﴿كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾** أي كان حكم التوارث بين ذوي الأرحام مكتوباً مسطراً في الكتاب العزيز لا يبدل ولا يُغير قال قتادة : أي مكتوباً عند الله عز وجل ألا يرث كافر مسلماً[2] **﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم﴾** أي اذكر وقت أخذنا من النبيين عهدهم المؤكد باليمين ، أن يفوا بما التزموا ، وأن يصدِّق بعضهم بعضاً ، وأن يؤمنوا برسالة محمد ﷺ ورسالاتهم **﴿ومنكَ ومن نوحٍ وإبراهيم وموسى وعيسى[1] بن مريم﴾** أي وأخذنا منك يا محمد الميثاق ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، وهؤلاء هم أولو العزم ومشاهير الرسل ، وإنما قدَّمهﷺ في الذكر لبيان مزيد شرفه وتعظيمه قال البيضاوي : خصَّهم بالذكر لأنهم مشاهير أرباب الشرائع ، وقدَّم نبينا عليه الصلاة والسلام تعظيماً له وتكريماً لشأنه[3] وقال ابن كثير : بدأ بالخاتم لشرفه صلوات الله عليه ، وبياناً لعظم مكانته ، ثم رتبهم بحسب وجودهم في الزمان[4] **﴿وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾** أي وأخذنا من الأنبياء عهداً وثيقاً عظيماً على الوفاء بما التزموا به من تبليغ الرسالة **﴿ليسأل الصادقين عن صدقهم﴾** أي ليسأل الله يوم القيامة الأنبياء الصادقين عن تبليغهم الرسالة إلى قومهم قال الصاوي : والحكمة في سؤال الرسل مع علمه تعالى بصدقهم هو التقبيح على الكفار يوم القيامة وتبكيتهم[5] وقال القرطبي : وفي الآية تنبيه على أن الأنبياء إذا كانوا يُسألون يوم القيامة فكيف بمن سواهم ؟ وفائدة سؤالهم توبيخ الكفار كما قال تعالى لعيسى **﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين﴾**[6] ؟ **﴿وأعدَّ للكافرين عذاباً أليماً﴾** أي وأعد الله للكافرين عذاباً مؤلماً موجعاً ، بسبب كفرهم وإعراضهم عن قبول الحق ، ثم شرع تعالى في ذكر « غزوة الأحزاب » وما فيها من نِعَمٍ فائضة ، وآيات باهرة للمؤمنين فقال **﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمةَ الله عليكم﴾** أي اذكروا فضله وإنعامه عليكم **﴿إذ جاءتكم جنودٌ﴾** أي وقت مجيء جنود الأحزاب وتألبهم عليكم قال أبو السعود : والمراد بالجنود الأحزاب وهم قريش ، وغطفان ، ويهود قريظة وبني النضير ، وكانوا زهاء اثني عشر ألفاً ، فلما سمع رسول الله ﷺ بإقبالهم ضرب الخندق على المدينة بإشارة «سلمان الفارسي» ثم خرج في ثلاثة آلاف من المسلمين ، فضرب معسكره والخندقُ بينه وبين المشركين ، واشتد الخوف وظنَّ المؤمنون كل ظن ، ونجم النفاق في المنافقين

(١) انظر زاد المسير لابن الجوزي ٦/ ٣٥٤ . (٢) القرطبي ١٤/ ١٢٦ . (٣) البيضاوي ١/ ١١٤ . (٤) مختصر ابن كثير ٣/ ٨٣ .
(٥) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٢٦٩ . (٦) القرطبي ١٤/ ١٢٨ .

﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾

حتى قال « معتب بن قشير » يعدنا محمد كنوز كسرى وقيصر ولا نقدر أن نذهب إلى الغائط[1] ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها﴾ أي فأرسلنا على الأحزاب ريحاً شديدة وجنوداً من الملائكة لم تروهم وكانوا قرابة ألف قال المفسرون : بعث الله عليهم ريحاً عاصفاً وهي ريح الصبا في ليلة شديدة البرد والظلمة ، فقلعت بيوتهم ، وكفأت قدورهم ، وصارت تلقي الرجل على الأرض ، وأرسل الله الملائكة فزلزلتهم - ولم تقاتل - بل ألقت في قلوبهم الرعب[2] ﴿وكان الله بما تعملون بصيراً﴾ أي وهو تعالى مطلع على ما تعملون من حفر الخندق ، والثبات على معاونة النبي ﷺ في ذلك الوقت ﴿إذ جاءوكم من فوقكم﴾ أي حين جاءتكم الأحزاب من فوق الوادي يعني من أعلاه قبل المشرق ، ومنه جاءت أسد وغطفان ﴿ومن أسفلَ منكم﴾ أي ومن أسفل الوادي يعني أدناه قِبل المغرب ، ومنه جاءت قريش وكنانة وأوباش العرب ، والغرضُ أن المشركين جاءوهم من جهة المشرق والمغرب ، وأحاطوا بالمسلمين إحاطة السوار بالمعصم ، وأعانهم يهود بني قريظة فنقضوا العهد مع الرسول وانضموا إلى المشركين ، فاشتد الخوف ، وعظُم البلاء ولهذا قال تعالى ﴿وإذْ زاغَتْ الأبصار﴾ أي وحين مالت الأبصار عن سننها ومستوى نظرها حيرةً وشخوصاً لشدة الهول والرعب[3] ﴿وبلغت القلوبُ الحناجر﴾ أي زالت عن أماكنها من الصدور حتى كادت تبلغ الحناجر ، وهذا تمثيلٌ لشدة الرعب والفزع الذي دهاهم ، حتى كأن أحدهم قد وصل قلبه إلى حنجرته من شدة ما يلاقي من الهول[4] ﴿وتظنون بالله الظنونا﴾ أي وكنتم في تلك الحالة الشديدة تظنون الظنون المختلفة قال الحسن البصري : ظن المنافقون أن المسلمين يُستأصلون ، وظنَّ المؤمنون أنهم يُنصرون[5] ، فالمؤمنون ظنوا خيراً ، والمنافقون ظنوا شراً وقال ابن عطية : كاد المؤمنون يضطربون ويقولون : ما هذا الخُلف للوعد ؟ وهذه عبارة عن خواطر خطرت للمؤمنين لا يمكن للبشر دفعها ، وأما المنافقون فتعجلوا ونطقوا وقالوا : ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً[6] ﴿هنالك ابتلي المؤمنون﴾ أي في ذلك الزمان والمكان امتحن المؤمنون واختبروا ، ليتميز المخلص الصادق من المنافق قال القرطبي : وكان هذا الابتلاءُ بالخوف والقتال ، والجوع والحصر والنزال[7] ﴿وزُلْزِلوا زلزالاً شديداً﴾ أي وحركوا تحريكاً عنيفاً من شدة ما دهاهم ، حتى لكأن الأرض تتزلزل بهم وتضطرب تحت أقدامهم قال ابن جزي : وأصل الزلزلة شدةُ التحريك وهو هنا عبارة عن اضطراب القلوب وتزعزعها[8] ﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض﴾ أي واذكر حين يقول المنافقون ، والذين في قلوبهم مرض النفاق ،

(١) أبو السعود ٤/ ٣٠٤ . (٢) الصاوي على الجلالين ٣/ ٢٧١ . (٣) تفسير الكشاف ٣/ ٤٢٦ . (٤) قال القرطبي : وهذا القول منقول معناه عن عكرمة ، والأظهر أنه أراد اضطراب القلب وضرباته حتى كأنه لشدة اضطرابه بلغ الحنجرة . اهـ . (٥) القرطبي ١٤/ ١٤٥ .
(٦) نقلاً عن البحر المحيط ٧/ ٢١٧ . (٧) القرطبي ١٤/ ١٤٦ . (٨) التسهيل ٣/ ١٣٤ .

يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ﴿١٣﴾ وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ﴿١٤﴾ وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٦﴾ قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ

لأن الايمان لم يخالط قلوبهم ﴿ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً﴾ أي ما وعدنا الله ورسوله إلا باطلاً وخداعاً قال الصاوي : والقائل هو « معتب بن قشير » الذي قال : يعدنا محمدٌ بفتح فارس والروم ، وأحدُنا لا يقدر أن يتبرز فرقاً ، ما هذا إلا وعد غرور[1] ، يغرنا به محمد ﴿وإذْ قالت طائفةٌ منهم﴾ أي واذكر حين قالت جماعة من المنافقين وهم : أوس بن قيظي وأتباعه ، وأُبيٌّ بن سلول وأشياعه ﴿يا أهل يثرب لا مُقام لكم﴾ أي يا أهل المدينة لا قرار لكم ههنا ولا إقامة ﴿فارجعوا﴾ أي فارجعوا إلى منازلكم واتركوا محمداً وأصحابه﴿ويستأذن فريقٌ منهم النبيَّ﴾ويستأذن جماعة من المنافقين النبيﷺ في الإنصراف متعللين بعلل واهية ﴿يقولون إنَّ بيوتنا عورة﴾ أي غير حصينة فنخاف عليها العدوَّ والسُّراق ﴿وما هي بعورة﴾ تكذيب من الله تعالى لهم أي ليس الأمر كما يزعمون ﴿إنْ يريدون إلا فراراً﴾ أي ما يريدون بما طلبوا من الرسولﷺ إلا الهرب من القتال ، والفرار من الجهاد ، والتعبيرُ بالمضارع ﴿ويستأذن﴾ لاستحضار الصورة في النفس ، فكأن السامع يبصرهم الآن وهم يستأذنون ، ثم فضحهم تعالى وبيَّن كذبهم ونفاقهم فقال ﴿ولو دُخلت عليهم من أقطارها﴾ أي ولو دخل الأعداء على هؤلاء المنافقين من جميع نواحي المدينة وجوانبها ﴿ثم سُئلوا الفتنةَ لآتوها﴾ أي ثم طلب إليهم أن يكفروا وأن يقاتلوا المسلمين لأعطوها من أنفسهم ﴿وما تلبثوا بها إلا يسيراً﴾ أي لفعلوا ذلك مسرعين ، ولم يتأخروا عنه لشدة فسادهم ، وذهاب الحق من نفوسهم ، فهم لا يحافظون على الايمان ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع[2] ، وهذا ذمٌ لهم في غاية الذم ﴿ولقد كانوا عاهدوا اللَّهَ من قبلُ لا يولون الأدبار﴾ أي ولقد كان هؤلاء المنافقون أعطوا ربهم العهود والمواثيق من قبل غزوة الخندق وبعد بدر ألا يفروا من القتال ﴿وكان عهدُ الله مسئولاً﴾ أي وكان هذا العهد منهم جديراً بالوفاء لأنهم سيسألون عنه ، وفيه تهديدٌ ووعيد قال قتادة : لما غاب المنافقون عن بدر ، ورأوا ما أعطى الله أهل بدرٍ من الكرامة والنصر ، قالوا لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلن[3] ﴿قل لن ينفعكم الفرارُ إن فررتم من الموتِ أو القتل﴾ أي قل يا أيها النبي لهؤلاء المنافقين ، الذين يفرون من القتال طمعاً في البقاء وحرصاً على الحياة ، إن فراركم لن يطوّل أعماركم ولن

---

(١) حاشية الصاوي ٢٧٢/٣ . (٢) هذا قول قتادة وابن زيد واختيار ابن جرير قال القرطبي : وقال السدي والحسن والفراء المعنى : ما لبثوا بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلا قليلاً حتى يهلكوا ، والأول قول أكثر المفسرين ، وذلك لضعف نياتهم وفرط نفاقهم ، فلو اختلط بهم الأعداء لأظهروا الكفر . اهـ« القرطبي ١٤/ ١٥٠ » . (٣) القرطبي ١٤/ ١٥٠ .

﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾

يؤخر آجالكم ، ولن يدفع الموت عنكم أبداً **﴿وإذاً لا تُمتَّعون إلا قليلاً﴾** أي ولئن هربتم وفررتم فإذاً لا تمتعون بعده إلا زمناً يسيراً ، لأن الموت مآل كل حي ، ومن لم يمت بالسيف مات بغيره **﴿قل من ذا الذي يعصمكم من الله﴾** أي من يستطيع أن يمنعكم منه تعالى **﴿إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة﴾** أي إن قدَّر هلاككم ودماركم ، أو قدَّر بقاءكم ونصركم ؟ **﴿ولا يجدون لهم من دون اللهِ ولياً ولا نصيراً﴾** أي وليس لهم من دون الله مجير ولا مغيث ، فلا قريب ينفعهم ولا ناصر ينصرهم **﴿قد يعلم اللهُ المعوِّقين منكم﴾** أي لقد علم الله تعالى ما كان من أمر أولئك المنافقين ، المثبطين للعزائم ، الذين يعوِّقون الناس عن الجهاد ، ويصدونهم عن القتال **﴿والقائلين لإخوانهم هلُمَّ إلينا﴾** أي والذين يقولون لإخوانهم في الكفر والنفاق : تعالوا إلينا واتركوا محمداً وصحبه يهلكوا ولا تقاتلوا معهم ، قال تعالى **﴿ولا يأتون البأس إلا قليلاً﴾** أي ولا يحضرون القتال إلا قليلاً منهم رياءً وسمعة ، **قال الصاوي** : لأن شأن من يثبِّط غيره عن الحرب ألاّ يفعله إلا قليلاً لغرضٍ خبيث[1] وقال في البحر : المعنى : لا يأتون القتال إلا إتياناً قليلاً ، يخرجون مع المؤمنين يوهمونهم أنهم معهم ، ولا تراهم يقاتلون إلا شيئاً قليلاً إذا اضطروا إليه ، فقتالهم رياء ليس بحقيقة[2] **﴿أشحةً عليكم﴾** أي بخلاء عليكم بالمودة والشفقة والنصح لأنهم لا يريدون لكم الخير **﴿فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يُغْشَى عليه من الموت﴾** أي فإذا حضر القتال رأيت أولئك المنافقين في شدة رعب لا مثيل لها ، حتى إنهم لتدور أعينهم في أحداقهم كحال المغشي عليه من معالجة سكرات الموت حَذَراً وخَوَراً **قال القرطبي** : وصفهم بالجبن ، وكذا سبيل الجبان ينظر يميناً وشمالاً محدِّداً بصره ، وربما غُشي عليه من شدة الخوف[3] **﴿فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنةٍ حِداد﴾** أي فإذا ذهب الخوف عنهم وانجلت المعركة آذوكم بالكلام بألسنة سليطة ، وبالغوا فيكم طعناً وذماً **قال قتادة** : إذا كان وقت قسمة الغنيمة بسطوا ألسنتهم فيكم يقولون : أعطونا أعطونا فإنا قد شهدنا معكم ، ولستم أحقَّ بها منا ، فأما عند البأس فأجبن قومٍ وأخذلهم للحق ، وأمّا عند الغنيمة فأشح قوم وأبسطهم لساناً[4] **﴿أشحةً على الخير﴾** أي خاطبوكم بما خاطبوكم به حال كونهم أشحة أي بخلاء على المال والغنيمة **﴿أولئك لم يؤمنوا﴾** أي أولئك الموصوفون بما ذكر من صفات السوء ، لم يؤمنوا حقيقةً بقلوبهم وإن

---

(١) حاشية الصاوي ٣/ ٢٧٣ . (٢) البحر ٧/ ٢٢٠ .
(٣) تفسير القرطبي ١٤/ ١٥٣ . (٤) زاد المسير ٦/ ٣٦٦ والقرطبي ١٤/ ١٥٤ .

يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾

أسلموا ظاهراً ﴿فأحبط اللهُ أعمالهم﴾ أي أبطلها بسبب كفرهم ونفاقهم ، لأن الإيمان شرط في قبول الأعمال ﴿وكان ذلك على اللهِ يسيراً﴾ أي وكان ذلك الإحباط سهلاً هيناً على الله ، ثم أخبر تعالى عنهم بما يدل على جبنهم فقال ﴿يحسبون الأحزاب لم يذهبوا﴾ أي يحسب المنافقون من شدة خوفهم وجبنهم أن الأحزاب ـ وهم كفار قريش ومن تحزب معهم ـ بعد انهزامهم لم ينصرفوا عن المدينة وهم قد انصرفوا ﴿وإن يأتِ الأحزاب يودُّوا لو أنهم بادون في الأعراب﴾ أي وإن يرجع إليهم الكفار كرة ثانية للقتال يتمنوا لشدة جزعهم أن يكونوا في البادية مع الأعراب ـ لا في المدينة معكم ـ حذراً من القتل وتربصاً للدوائر ﴿يسألون عن أنبائكم﴾ أي يسألون عن أخباركم وما وقع لكم فيقولون : أهلك المؤمنون ؟ أغلب أبو سفيان ؟ ليعرفوا حالكم بالاستخبار لا بالمشاهدة ﴿ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً﴾ أي ولو أنهم كانوا بينكم وقت القتال واحتدام المعركة ما قاتلوا معكم إلا قتالاً قليلاً لجبنهم وذلتهم وحرصهم على الحياة .

البَــلاَغَــة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ التنكير لإفادة الاستغراق والشمول ﴿ما جعل الله لرجلٍ من قلبين﴾ وإدخال حرف الجر الزائد لتأكيد الاستغراق ، وذكر الجوف ﴿في جوفه﴾ لزيادة التصوير في الإنكار .

٢ ـ جناس الاشتقاق ﴿وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً﴾ .

٣ ـ الطباق بين ﴿أخطأتم . . وتعمدت قلوبكم﴾ وبين ﴿سوءً . . ورحمة﴾ لأن المراد بالسوء الشر ، وبالرحمة الخير .

٤ ـ التشبيه البليغ ﴿وأزواجه أُمهاتُهم﴾ حُذف منه وجه الشبه وأداة التشبيه فصار بليغاً ، وأصل الكلام وأزواجه مثل أمهاتهم في وجوب الاحترام والتعظيم ، والإجلال والتكريم .

٥ ـ المجاز بالحذف ﴿أولى ببعض﴾ أي أولى بميراث بعض .

٦ ـ ذكر الخاص بعد العام للتشريف ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح﴾ فقد دخل هؤلاء المذكورون في جملة النبيين ولكنه خصهم بالذكر تنويهاً بشأنهم وتشريفاً لهم .

٧ ـ الاستعارة ﴿ميثاقاً غليظاً﴾ استعار الشيء الحسي ـ وهو الغلظُ الخاص بالأجسام ـ للشيء المعنوي وهو بيان حرمة الميثاق وعظمه وثقل حمله .

٨ ـ الالتفات ﴿ليسأل الصادقين﴾ وغرضه التبكيت والتقبيح للمشركين .

٩ ـ الطباق بين ﴿من فوقكم . . وأسفل منكم﴾ .

١٠ ـ التشبيه التمثيلي ﴿تدور أعينهم كالذي يُغشى عليه من الموت﴾ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد .

١١ ـ المبالغة في التمثيل ﴿وبلغت القلوب الحناجر﴾ صوَّر القلوب في خفقانها واضطرابها كأنها وصلت إلى الحلقوم .

١٢ ـ الكناية ﴿لا يولون الأدبار﴾ كناية عن الفرار من الزحف .

١٣ ـ الاستعارة المكنية ﴿سلقوكم بألسنةٍ حداد﴾ شبَّه اللسان بالسيف المصلت وحذف ذكر المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو السلق بمعنى الضرب على طريق الاستعارة المكنية ، ولفظ﴿حداد﴾ ترشيح .

١٤ ـ توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿كان ذلك في الكتاب مسطوراً . . ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً﴾ ونحوه وهو يزيد في رونق الكلام وجماله ، لما له من وقع رائع ، وجرْس عذب[1] .

تنبيه : خاطب الله تعالى الأنبياء بأسمائهم فقال ﴿يا نوح اهبط بسلامٍ منا﴾ ﴿يا إبراهيم قد صدَّقت الرؤيا﴾ ﴿يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي﴾ ولم يخاطب الرسول إلا بلفظ النبوة والرسالة ﴿يا أيها النبي حسبُك الله﴾ ﴿يا أيها الرسول بلِّغْ ما أُنزل إليك﴾ الخ ولا نجد في القرآن العظيم كله نداءً له باسمه ، وإنما النداء بلفظ النبوة والرسالة ، وفي هذا تفخيم لشأنه ، وتعظيم لمقامه ، وإشارة إلى أنه سيد الأولين والآخرين ، وإمام الأنبياء والمرسلين ، وتعليم لنا الأدب معه ﷺ ، فلا نذكره إلا مع الإجلال والإكرام ، ولا نصفه إلا بالوصف الأكمل ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً . .﴾ ﴿إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى . .﴾[2] الآية .

لطيفة : إن قيل : ما الفائدة بأمر اللهِ رسوله بالتقوى وهو سيد المتقين ؟ فالجواب أنه أمرٌ بالثبات والاستدامة على التقوى كقوله ﴿يا أيها الذين آمنوا آمِنُوا﴾ أي اثبتوا على الإيمان وكقول المسلم ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ وهو مهتد إليه وغرضه ثبتنا على الصراط المستقيم ، أو نقول : الخطاب للرسول والمراد أمته .

* * *

(١) ذكرنا الأمثلة البلاغية بإيجاز على سبيل المثال لا الحصر ، ليتذوق القارىء بعض الروائع البيانية وإلا فكلام الله معجز وفيه من الصور البلاغية والأسرار البيانية ما يتذوقها الإنسان ويعجز عن وصفها اللسان . (٢) انظر ما كتبه أبو حيان في البحر المحيط ٧/ ٢١٠ وما كتبه القاضي عياض في كتابه الشفاء فقد أجاد كل منهما وأفاد .

قال الله تعالى : ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة . . إلى . .أعدَّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾ من آية (٢١) إلى نهاية آية (٣٥) .

المناسبة : لما ذكر تعالى غزوة الأحزاب ، وموقف المنافقين المذبذبين منها ، بالقعود عن الجهاد ، وتثبيط العزائم ، أمر المؤمنين في هذه الآيات بالاقتداء بالرسول الكريم في صبره وثباته ، وتضحيته وجهاده ، ثم جاء الحديث عن زوجات رسول الله الطاهرات ، وأمرهنَّ بالاقتداء برسول الله ﷺ في زهده ، وعدم التطلع إلى زهرة الدنيا لأنهن قدوة لسائر نساء المؤمنين .

اللغة : ﴿أسوة﴾ الأسوة : القُدوة وفيها لغتان كسر الهمزة وضمها يقال ائتسى فلان بفلان أي اقتدى به ﴿نَحْبه﴾ النَّحب : النذرُ والعهد يقال : نَحَبَ ينحب من باب قتل نذر ، ومن باب ضرب بكى قال لبيد :

ألا تسْألانِ المرءَ ماذا يُحاول أنحْبٌ فيُقضى أم ضلال وباطل[1] ؟

ويقال : قضى نحبه إذا مات ، وعبَّر به عن الموت لأن كل حي لا بدَّ أن يموت ، فكأنه نذر لازم في رقبته فإذا مات فقد قضى نحبه أي نذره[2] ﴿صياصيهم﴾ حصونهم جمع صيصية وهو ما يتحصن به قال الشاعر :

فأصبحت الثيرانُ صَرْعى وأصبحت نساءُ تميم يبْتدرنَ الصيَّاصيا[3]

﴿أمتعكنَّ﴾ متعة الطلاق ، وأصل المتاع ما يُتبلَّغ به من الزاد ، ومنه متعة المطلقة لأنها تنتفع وتتمتع به[4] ﴿وأسرحكنَّ﴾ أطلقكنَّ ، وأصل التسريح في اللغة : الإرسال والإطلاق[5] ﴿تبرَّجْنَ﴾ تبرجت المرأة : أظهرت زينتها ومحاسنها للأجانب[6] ، وأصله من الظهور ومنه سمي البرج لسعته وظهوره ﴿وقرْنَ﴾ الزمن بيوتكن من قولهم : قررتُ بالمكان أقرُّ به إذا بقيت فيه ولزمته ، والقرار : مصدر ، وأصل « قرنْ » اقررن حذفت الراء وألقيت فتحتها على ما قبلها ، واستغني عن ألف الوصل لتحرك القاف[7] ﴿الرجس﴾ في اللغة : القذر والنجاسة ، وعبِّر به هنا عن الآثام لأن عرض المقترف للقبائح يتلوث بها ويتدنس ، كما يتلوث بدنه بالنجاسات[8] .

سبب النزول : أ ـ أخرج ابن جرير الطبري عن أنس بن مالك قال : غاب عمي « أنس بن النضر » عن قتال يوم بدر ، فقال : غبتُ عن أول قتالٍ مع رسول الله ﷺ ؟ لئن أشهدني الله قتالاً ليرينَّ الله ما أصنع ؟ فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون ـ انهزموا ـ فقال : اللهم إني أبرأ إليك مما فعل هؤلاء ـ يعني المشركين ـ وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني المسلمين ـ ثم مشى بسيفه فلقيه « سعد بن معاذ » فقال : أي سعد والله إني لأجد ريح الجنة دون أحد ! ثم قاتل حتى قتل ، فقال سعد يا رسول الله : ما استطعت أن أصنع ما صنع ، قال أنس بن مالك : فوجدناه بين القتلى وبه بضع وثمانون جراحة بين ضربةٍ بسيف ،

---

(١) تفسير القرطبي ١٤/١٥٨ . (٢) تفسير الكشاف ٣/ ٤٢١ . (٣) القرطبي ١٤/ ١٦١ . (٤) المصباح المنير ٢/ ٢٢٦ . (٥) المعجم الوسيط ١/ ٤٢٧ . (٦) المصباح المنير ١/ ٤٨ . (٧) القرطبي ١٤/ ١٧٨ . (٨) الكشاف ٣/ ٤٢٥ .

أو طعنةٍ برمح ، أو رمية بسهم ، فما عرفناه حتى جاءت أخته فعرفته ببنانه ـ رءوس الأصابع ـ قال أنس : فكنا نتحدث أن هذه الآية ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحْبه ومنهم من ينتظر . .﴾ نزلت فيه وفي أصحابه[١] .

ب ـ وروى الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنه قال : أقبل أبو بكر رضي الله عنه يستأذن رسول الله ﷺ ـ والناسُ ببابه جلوس ـ فلم يُؤذن له ، ثم أقبل عمر رضي الله عنه فاستأذن فلم يُؤذن له ، ثم أُذن لأبي بكرٍ وعمر فدخلا والنبي ﷺ جالسٌ وحوله نساؤه وهو ساكت ، فقال عمر : لأكلمنَّ النبي ﷺ لعله يضحك ! فقال يا رسول الله : لو رأيت ابنة زيد ـ امرأة عمر ـ سألتني النفقة آنفاً فوجأت عنقها ، فضحك النبي ﷺ حتى بدتْ نواجذه وقال : « هُنَّ حولي يسألنني النفقة » ! فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر إلى حفصة كلاهما يقولان : تسألانِ رسول الله ما ليس عنده ؟ فنهاهما رسول الله ﷺ فقلن : واللهِ لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده ، وأنزل الله آية الخيار ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتُنَّ تُردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أُمتعكنَّ وأُسرحكن سراحاً جميلاً﴾ فبدأ بعائشة رضي الله عنها فقال لها : إني أذكر لكِ أمراً ما أحبُّ أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك ، قالت : وما هو يا رسول الله ؟ فتلا عليها الآية فقالت : أفيك أستأمرُ أبوي ؟ بل أختار اللهَ ورسوله والدار الآخرة ، وأسألك ألاّ تذكر لامرأةٍ من نسائك ما اخترت ، فقال : إن الله لم يبعثني معنفاً ولكن بعثني معلماً وميسراً ، لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها[١] .

ج ـ عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ يا نبيَّ الله : مالي أسمع الرجال يذكرون في القرآن ، والنساء لا يُذكرن ! ؟ فأنزل الله تعالى ﴿إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات . .﴾[٢] الآية .

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾

التفسير : ﴿لقد كان لكم في رسولِ اللهِ أُسْوةٌ حسنة﴾ أي لقد كان لكم أيها المؤمنون في هذا الرسول العظيم قدوةٌ حسنة ، تقتدون به ﷺ في إخلاصه ، وجهاده ، وصبره ، فهو المثل الأعلى الذي يجب أن يُقتدى به ، في جميع أقواله وأفعاله وأحواله ، لأنه لا ينطق ولا يفعل عن هوى ، بل عن وحيٍ وتنزيل ، فلذلك وجب عليكم تتبع نهجه ، وسلوك طريقه ﴿لمن كان يرجوا اللهَ واليوم الآخر﴾ أي لمن كان مؤمناً مخلصاً يرجو ثوابَ الله ، ويخاف عقابه ﴿وذكر اللهَ كثيراً﴾ أي وأكثر من ذكر ربه ، بلسانه وقلبه قال ابن كثير : أمر تبارك وتعالى الناسَ بالتأسي بالنبي ﷺ في صبره ومصابرته ، ومجاهدته ومرابطته ، ولهذا قال للذين تضجروا وتزلزلوا ، واضطربوا يوم الأحزاب ﴿لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة﴾

(١) تفسير ابن جرير الطبري ٢٠/ ٨٥ وأسباب النزول للواحدي ٢٣٧ . (٢) أخرجه الإمام أحمد كذا في ابن كثير ٣/ ٩٢ . (٣) رواه النسائي في سننه عن أم سلمة .

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾

والمعنى : هلاّ اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ﷺ [1] !! ثم حكى تعالى موقف المؤمنين الصادقين في غزوة الأحزاب أثناء رؤيتهم جنود قريش ومن تحزّب معهم ، وما صدر عن المؤمنين من إخلاص ويقين ، تُظهر بوضوح روح الإيمان والتضحية فقال ﴿ولمـا رأى المؤمنـون الأحزابَ قالوا هـذا ما وعدنا اللهُ ورسولُه﴾ أي ولمـا رأى المؤمنون الكفار قادمين نحوهم ، وقد أحاطوا بهم من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم ، قالوا : هذا ما وعدنا به الله ورسولُه ، من المحنة والابتلاء ، ثم النصر على الأعداء ﴿وصدَق الله ورسولُـه﴾ أي صدق الله في وعده ، ورسولُه فيما بشرنا به قال المفسرون : لما كان المسلمون يحفرون الخندق اعترضتهم صخرة عظيمة عجزوا عن تكسيرها ، فأخبروا الرسول ﷺ بها فجاء وأخذ المعول وضربها ثلاث ضربات أضاءت له منها مدائن كسرى ، وقصور الروم ، فقال أبشروا بالنصر ، فلما أقبلت جموع المشركين ورأوهم قالوا ﴿هذا ما وعدنا اللهُ ورسولُه وصدق اللهُ ورسولـه﴾ [2] ﴿ومـا زادهـم إلاّ إيمـانـاً وتسليمـاً﴾ أي وما زادهم ما رأوه من كثرة جند الأحزاب ، ومن شدة الضيق والحصار ، إلا إيمانـاً قوياً عميقاً بالله ، واستسلاماً وانقياداً لأوامره ﴿مـن المؤمنينَ رجـالٌ صدقوا ما عاهـدوا اللهَ عليه﴾ أي ولقد كان من أولئك المؤمنين رجالٌ صادقون ، نذروا أنهم إذا أدركوا حرباً مع رسول الله ﷺ ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا ﴿فمنهـم مـن قضى نحبـه﴾ أي فمنهم من وفّى بنذره وعهده حتى استشهد في سبيل الله كأنس ابن النضر وحمزة ﴿ومنهـم مـن ينتظـر﴾ أي ومنهم من ينتظر الشهادة في سبيل الله ﴿ومـا بدّلـوا تبديـلاً﴾ أي وما غيّروا عهدهم الذي عاهدوا عليه ربهم أبداً ﴿ليجـزي اللهُ الصادقين بصدقهـم﴾ أي ليجزي الله الصادقين بسبب صدقهم وحسن صنيعهم أحسنَ الجزاء في الآخرة ﴿ويُعـذّب المنافقيـن إن شاء أو يتـوب عليهم﴾ أي ويعذّب المنافقين الناقضين للعهود بأن يميتهم على النفاق فيعذبهم ، أو يتوب عليهم فيرحمهم ﴿إن اللـه كـان غفوراً رحيمـاً﴾ أي واسع المغفرة رحيماً بالعباد قال ابن كثير : ولما كانت رحمته ورأفته تبارك وتعالى هي الغالبة لغضبه ختم بها الآية الكريمة [3] ﴿وردَّ اللـه الـذيـن كفـروا بغيظهـم﴾ أي وردَّ الله الأحزاب الذين تألبوا على غزو المدينة خائبين خاسرين ، مغيظين محنقين ، لم يشف صدورهم بنيل ما أرادوا ﴿لـم ينالـوا خيـراً﴾ أي حال كونهم لم ينالوا أيَّ خير لا في الدنيا ولا في الآخرة ، بل قد اكتسبوا الآثام في مبارزة الرسول عليه السلام وهمّهم بقتله ﴿وكفـى اللهُ المؤمنيـن القتال﴾ أي كفاهم شرَّ أعدائهم بأن أرسل عليهم الريح والملائكة حتى ولّوا الأدبار منهزمين ﴿وكـان اللـهُ قوياً عزيـزاً﴾ أي قادراً على

(1) مختصر ابن كثير ٣/ ٨٨ . (2) انظر حاشية الصاوي ٣/ ٢٧٠ . (3) مختصر ابن كثير ٣/ ٨٩ .

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

الانتقام من أعدائه ، عزيزاً غالباً لا يُقهر ، ولهذا كان عليه السلام يقول : (لا إله إلا الله وحده ، نصر عبده ، وأعزَّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده)[1] ﴿وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم﴾ أي وأنزل اليهود ـ وهم بنو قريظة ـ الذين أعانوا المشركين ونقضوا عهدهم وانقلبوا على النبي وأصحابه ، أنزلهم من حصونهم وقلاعهم التي كانوا يتحصنون فيها ﴿وقذف في قلوبهم الرعب﴾ أي ألقى الله في قلوبهم الخوف الشديد حتى فتحوا الحصون واستسلموا قال ابن جزي : نزلت الآية في يهود « بني قريظة » وذلك أنهم كانوا معاهدين لرسول الله ﷺ فنقضوا عهده وصاروا مع قريش ، فلما انهزم المشركون وانصرفت قريش عن المدينة حاصر رسول الله ﷺ بني قريظة حتى نزلوا على حكم « سعد بن معاذ » فحكم بأن يُقتل رجالهم ، ويُسبى نساؤهم وذريتهم[2] فذلك قوله تعالى ﴿فريقاً تقتلون﴾ يعني الرجال وقتل منهم يومئذٍ ما بين الثمانمائة والتسعمائة ﴿وتأسرون فريقاً﴾ يعني النساء والذرية ﴿وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم﴾ أي وأورثكم يا معشر المؤمنين أرض بني قريظة وعقارهم وخيلهم ومنازلهم وأموالهم التي تركوها ﴿وأرضاً لم تطؤوها﴾ أي وأرضاً أخرى لم تطؤوها بعدُ بأقدامكم ، وهي خيبر لأنها أخذت بعد قريظة ، وكل أرض فتحها المسلمون بعد ذلك ﴿وكان الله على كل شيء قديراً﴾ أي قادراً على كل ما أراد ، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء قال أبو حيان : ختم تعالى هذه الآية ببيان قدرته على كل شيء ، وكأن في ذلك إشارة إلى فتحه على المسلمين الفتوح الكثيرة ، فكما ملَّكهم هذه الأراضي فكذلك هو قادر على أن يملكهم غيرها من البلاد[3] ﴿يا أيها النبيُّ قل لأزواجك﴾ أي قل لزوجاتك اللاتي تأذيتَ منهن بسبب سؤالهن إياك الزيادة في النفقة ﴿إن كنتُنَّ تُرِدْنَ الحياة الدنيا وزينتها﴾ أي إن رغبتُنَّ في سعة الدنيا ونعيمها ، وبهرجها الزائل ﴿فتعالَيْنَ أمتِّعْكُنَّ﴾ أي فتعالينَ حتى أدفع لكنَّ متعة الطلاق ﴿وأسرحكُنَّ سراحاً جميلاً﴾ أي وأطلقكُنَّ طلاقاً من غير ضرار ﴿وإن كنتُنَّ تُردن اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرةَ﴾ أي وإن كنتُنَّ ترغبن في رضوان الله ورسوله ، والفوز بالنعيم الوافر في الدار الآخرة ﴿فإنَّ الله أعدَّ للمحسناتِ منكنَّ أجراً عظيماً﴾ جواب الشرط أي فإن الله تعالى قد هيأ للمحسنات منكنَّ بمقابلة إحسانهن ثواباً كبيراً لا يوصف ، وهو الجنة التي فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر قال في البحر : لما نصر الله نبيه ، وفرَّق عنه الأحزاب ، وفتح عليه قريظة والنضير ، ظنَّ أزواجه

(١) أخرجه الشيخان . (٢) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ١٣٦ وانظر تفصيل القصة في زاد المسير ٦/ ٣٧٣ .
(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٢٥ .

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ۝٣٠ ۞وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ۝٣١ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا﴾

أنه اختصَّ بنفائس اليهود وذخائرهم ، فقعدن حوله وقلن يا رسول الله : بناتُ كسرى وقيصر في الحُليّ والحُلَل ، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق !! وآلمن قلبه بمطالبتهن له بتوسعة الحال ، وأن يعاملهنَّ بما يعامل به الملوك والأكابر أزواجهم ، فأمره الله أن يتلو عليهن ما نزل في أمرهنَّ ، وأزواجه إذ ذاك تسع زوجات[1] ﴿يا نساء النبي من يأتِ منكنَّ بفاحشة مبينة﴾ أي من تفعل منكن كبيرةً من الكبائر ، أو ذنباً تجاوز الحدَّ في القبح ، قال ابن عباس : يعني النشوز وسوء الخلق[2] ﴿يُضاعف لها العذاب ضعفين﴾ أي يكون جزاؤها ضعف جزاء غيرها من النساء ، لأن زيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل والمرتبة[3] ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ أي كان ذلك العقاب سهلاً يسيراً على الله ، لا يمنعه منه كونهنَّ أزواج ونساء النبي ﷺ ، وفي الآية تلوينٌ للخطاب ، فبعد أن كانت المخاطبة لهن على لسان رسول الله ﷺ وجَّه الخطاب إليهنَّ هنا مباشرةً لإظهار الاعتناء بأمرهن ونصحهن قال الصَّاوي : وهذه الآيات خطاب من الله لأزواج النبي ﷺ إظهاراً لفضلهن ، وعظم قدرهن عند الله تعالى ، لأن العتاب والتشديد في الخطاب مشعر برفعة رتبتهن ، لشدة قربهن من رسول الله ﷺ ولأنهن أزواجه في الجنة ، فبقدر القرب من رسول الله يكون القرب من الله[4] ﴿ومن يقنتْ منكنَّ للهورسوله﴾ أي ومن تواظب منكنَّ على طاعة الله وطاعة رسوله ﴿وتعملْ صالحاً﴾ أي وتتقرب إلى الله بفعل الخير وعمل الصالحات ﴿نُؤْتها أجرها مرتين﴾ أي نعطها الثواب مضاعفاً ونثيبها مرتين : مرة على الطاعة والتقوى ، وأخرى على طلبهنَّ رضاء رسول الله ﷺ بالقناعة وحسن المعاشرة ﴿وأعتدنا لها رزقاً كريماً﴾ أي وهيأنا لها في الجنة - زيادة على ما لها من أجر - رزقاً حسناً مرضياً لا ينقطع ، ثم أظهر فضيلتهنَّ على النساء فقال ﴿يا نساء النبي لستُنَّ كأحدٍ من النساء﴾ أي أنتن تختلفن عن سائر النساء من جهة أنكنَّ أفضل وأشرف من غيركن ، لكونكن زوجات خاتم الرسل ، وأفضل الخلق محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم ، فليست الواحدة منكنَّ كالواحدة من آحاد النساء ﴿إنْ اتقيتُنَّ﴾ شرطٌ حذف جوابه لدلالة ما قبله أي إن اتقيتنَّ اللهَ فأنتُنَّ بأعلى المراتب قال القرطبي : بيَّن تعالى أن الفضيلة إنما تتم لهن بشرط التقوى ، لما منحهنَّ الله من صحبة رسوله سيد الأولين والآخرين[5] ، وقال ابن عباس : يريد في هذه الآية : ليس قدركنَّ عندي مثل قدر غيركن من النساء الصالحات ، أنتُنَّ أكرمُ عليَّ وثوابكنَّ أعظم إن اتقيتُن ، فشرط عليهن التقوى بياناً أن فضيلتهن إنما تكون بالتقوى ، لا بنفس اتصالهن برسول الله ﷺ[6] ﴿فلا تَخْضعْنَ بالقول﴾ أي فلا ترققن الكلام عند

(١) نفس المرجع السابق ٧/٢٢٧ . (٢) زاد المسير ٦/٣٧٨ . (٣) الكشاف ٣/٤٢٤ . (٤) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٢٧٦ .
(٥) القرطبي ١٤/١٧٧ . (٦) زاد المسير ٦/٣٧٨ .

﴿مَّعْرُوفًا ۝٣٢ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝٣٣ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ۝٣٤ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ﴾

مخاطبة الرجال ﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾ أي فيطمع من كان في قلبه فجور وريبة ، وحبٌ لمحادثة النساء ﴿وقلن قولاً معروفاً﴾ أي وقلن قولاً حسناً عفيفاً لا ريبة فيه ، ولا لين ولا تكسر عند مخاطبتكنَّ للرجال[1] قال ابن كثير : ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلامٍ ليس فيه ترخيم ، ولا تخاطب الأجنبيَّ كما تخاطب زوجها ﴿وقَرْن في بيوتكنَّ﴾ أي الزَمْنَ بيوتكنَّ ولا تخرجن لغير حاجة ، ولا تفعلن كما تفعل الغافلات ، المتسكعات في الطرقات لغير ضرورة ﴿ولا تبرَّجْنَ تبرج الجاهلية الأولى﴾ أي لا تظهرن زينتكن ومحاسنكنَّ للأجانب مثل ما كان نساء الجاهلية يفعلن ، حيث كانت تخرج المرأة إلى الأسواق مظهرةً لمحاسنها ، كاشفة ما لا يليق كشفه من بدنها قال قتادة : كانت لهن مشية فيها تكسُّرٌ وتغنج فنهى الله تعالى عن ذلك ﴿وأقمن الصلاة وآتين الزكاة﴾ أي حافظن على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة قال ابن كثير : نهاهنَّ أولاً عن الشر ، ثم أمرهن بالخير ، من إقامة الصلاة وهي عبادة الله وحده ، وإيتاء الزكاة وهي الإحسان إلى المخلوقين[2] ﴿وأطعْنَ اللّهَ ورسُولَه﴾ أي أطعن الله ورسوله في جميع الأوامر والنواهي لتنلن مرتبة المتقيات ﴿إنما يريد الله ليُذهب عنكم الرجس﴾ أي إنما يريد الله أن يخلصكنَّ من دنس المعاصي ، ويطهركنَّ من الآثام ، التي يتدنس بها عرض الإنسان كما يتلوث بدنه بالنجاسات ﴿أهل البيت﴾ أي يا أهل بيت النبوة ﴿ويطهركم تطهيراً﴾ أي ويطهركم من أوضار الذنوب والمعاصي تطهيراً بليغاً ﴿واذكرن ما يُتْلى في بيوتكنَّ من آياتِ اللهِ والحكمة﴾ أي واقرأن آيات القرآن ، وسنة النبي عليه الصلاة والسلام ، فإن فيهما الفلاح والنجاح قال الزمخشري : ذكّرهن أن بيوتهن مهابط الوحي ، وأمرهنَّ ألا ينسين ما يُتلى فيها من الكتاب الجامع بين أمرين : آيات بينات تدل على صدق النبوة ، وحكمة وعلوم وشرائع سماوية[3] ﴿إن الله كان لطيفاً خبيراً﴾ أي عالماً بما يصلح لأمر العباد ، خبيراً بمصالحهم ولذلك شرع للناس ما يسعدهم في دنياهم وآخرتهم ، ثم أخبر تعالى أن المرأة والرجل في الجزاء والثواب سواء فقال ﴿إن المسلمين والمسلمات﴾ هم المتمسكون بأوامر الإسلام المتخلقون بأخلاقه رجالاً ونساءً ﴿والمؤمنين والمؤمنات﴾ أي المصدِّقين بالله وآياته ، وما أنزل على رسله وأنبيائه ﴿والقانتين والقانتات﴾ أي العابدين الطائعين ،

---

(١) أقول: إذا كان القرآن يمنع المرأة أن تتلاين في كلامها مع الرجال الأجانب لئلا يطمع بها الفساق والفجار، فكيف بمن تثير الكوامن والشجون بالغناء الماجن الذي كله ميوعة وانحلال، وتختلط فيه أصوات المغنين مع المغنيات في الحفلات الساهرة الداعرة وتنقله الإذاعات، ثم نسمع بعض أدعياء العلم يحتجون هذا بحجة أن صوت المرأة ليس بعورة؟ اللهم إنا نعوذ بك من شر هذا الزمان الذي فسق فيه الشبان، وطغت فيه النساء وأصبح المنكر معروفاً. والمعروفُ منكراً، ولا حول ولا قوة إلا بالله!! (٢) ابن كثير ٣/ ٩٤ المختصر ر. (٣) الكشاف ٣/ ٤٢٥ .

وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

المداومين على الطاعة ﴿والصادقين والصادقات﴾ أي الصادقين في إيمانهم ، ونياتهم ، وأقوالهم ، وأعمالهم ﴿والصابرين والصابرات﴾ أي الصابرين على الطاعات وعن الشهوات في المكره والمنشط ﴿والخاشعين والخاشعات﴾ أي الخاضعين الخائفين من الله جل وعلا ، المتواضعين له بقلوبهم وجوارحهم ﴿والمتصدقين والمتصدقات﴾ أي المتصدقين بأموالهم على الفقراء ، بالإحسان وأداء الزكوات ﴿والصائمين والصائمات﴾ أي الصائمين لوجه الله شهر رمضان وغيره من الأيام ، فالصوم زكاة البدن يزكيه ويطهّره ﴿والحافظين فروجهم والحافظات﴾ أي عن المحارم والآثام ، وعما لا يحل من الزنى وكشف العورات ﴿والذاكرين اللهَ كثيراً والذاكرات﴾ أي المديمين ذكر الله بألسنتهم وقلوبهم في كل الأوقات والأمكنة ﴿أعدَّ الله لهم مغفرةً وأجراً عظيماً﴾ أي أعدَّ لهؤلاء المتقين الأبرار ، المتصفين بالصفات الجليلة أعظم الأجر والثواب وهو الجنة ، مع تكفير الذنوب بسبب ما فعلوه من الأعمال الحسنة .

البَـلاَغَـة : تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الإطناب بتكرار الاسم الظاهر ﴿هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله﴾ كرر الإسم الكريم للتشريف والتعظيم .

٢ ـ الاستعارة ﴿قضى نحبه﴾ النحبُ : النذر ، واستعير للموت لأنه نهاية كل حي ، فكأنه نذر لازم في رقبة الإنسان[١] .

٣ ـ الجملة الاعتراضية ﴿ويعذب المنافقين ـ إن شاء ـ أو يتوب عليهم﴾ للتنبيه على أن أمر العذاب أو الرحمة موكول لمشيئته تعالى .

٤ ـ المقابلة بين ﴿إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها﴾ وبين ﴿وإن كنتُنَّ تردن الله ورسوله والدار الآخرة﴾ .

٥ ـ التشبيه البليغ ﴿ولا تبرجن تبرج الجاهلية﴾ أي كتبرج أهل الجاهلية حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فصار بليغاً .

٦ ـ عطف العام على الخاص ﴿وأطعن الله ورسوله﴾ بعد قوله ﴿أقمن الصلاة وآتين الزكاة﴾ فإن

(١) انظر البيضاوي ٢/١١٦ والكشاف ٣/٤٢١ .

إطاعة الله ورسوله تشمل كل ما تقدم من الأوامر والنواهي .

٧ ـ الاستعارة ﴿يذهب عنكم الرجس ويطهركم تطهيراً﴾ استعار الرجس للذنوب ، والطهر للتقوى لأن عرض المرتكب للمعاصي يتدنس ، وأما الطاعة فالعرض معها نقي مصون كالثوب الطاهر .

٨ ـ الإيجاز بالحذف ﴿والحافظات﴾ حذف المفعول لدلالة السابق عليه أي والحافظات فروجهن .

٩ ـ التغليب ﴿أعد الله لهم﴾ غلَّب الذكور وجمع الإناث معهم ثم أدرجهم في الضمير .

١٠ ـ توافق الفواصل مثل ﴿يسيراً ، قديراً ، كثيراً﴾ وهو من المحسنات البديعية .

* * *

قال الله تعالى : ﴿وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى الله ورسوله أمراً . . إلى . . وكان الله على كل شيء رقيباً﴾ من آية (٣٦) إلى نهاية آية (٥٢) .

المناسبة : لما ذكر تعالى صفات المؤمنين وما نالوه من الدرجات الرفيعة ، أعقبها ببيان أن طاعة الرسول من طاعة الله ، وأمر الرسول من أمر الله ، ثم ذكّرهم تعالى بالنعمة العظمى وهي بعثة السراج المنير ، المبعوث رحمة للعالمين ﷺ .

اللغة : ﴿الخِيَرة﴾ مصدر بمعنى الاختيار من تخيَّر على غير قياس مثل الطيرة من تطيَّر[١] ﴿مبديه﴾ أبدى الشيء : أظهره ﴿وَطراً﴾ الوطر : الحاجة التي هي في النفس قال الزجاج : الوطر الحاجةُ التي لك فيها هِمَّة فإذا بلغها الإنسان يقال : قضى وطره ، وقال المبرِّد : الوطرُ : الشهوةُ يقال : ما قضيتُ من لقائك وَطَراً أي ما استمتعتُ بك كما تشتهي نفسي وأنشد :

وكيفَ ثَـوائـي بالمدينةِ بعدما قَضَـى وطراً منها جميل بن معمر[٢]

﴿حرج﴾ ضيق وإثم ﴿خَلَوا﴾ مضوا وذهبوا ﴿قدراً مقدوراً﴾ قضاءً مقضياً في الأزل ﴿بكرة﴾ البكرة : هي أول النهار ﴿أصيلاً﴾ الأصيل : آخر النهار ﴿تُرجي﴾ تؤخر يقال أرجيتُ الأمر وأرجأته إذا أخرته[٣] ﴿تؤوي﴾ تضم ومنه « آوى إليه أخاه » .

سبب النزول : عن ابن عباس قال : خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لمولاه « زيد بن حارثة » فاستنكفت منه وكرهت وأبت فنزلت الآية ﴿وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرةُ من أمرهم . . ﴾ الآية فأذعنت زينب حينئذٍ وتزوجته . . وفي رواية « فامتنعت وامتنع أخوها عبد الله لنسبها من قريش فلما نزلت الآية جاء أخوها فقال يا رسول الله مرني بما شئت قال : فزوَّجها من زيد ، فرضي وزوَّجها[٤] .

(١) البحر المحيط ٧/٢٣٣ . (٢) نفس المرجع ٧/٢٠٩ . (٣) القرطبي ١٤/٢١٤ . (٤) القرطبي ١٤/١٨٧ .

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا

التفسير : ﴿وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ﴾ أي لا ينبغي ولا يصح ولا يليق بأي واحدٍ من المؤمنين والمؤمنات ﴿إذا قضى الله ورسوله أمراً﴾ أي إذا أمر الله عز وجل وأمر رسوله بشيءٍ من الأشياء قال الصاوي : ذكرُ اسم الله للتعظيم وللإشارة إلى أن قضاء رسول الله هو قضاء الله لكونه لا ينطق عن الهوى[1] ﴿أن يكون لهم الخِيَرة من أمرهم﴾ أي أن يكون لهم رأيٌ أو اختيار ، بل عليهم الانقياد والتسليم قال ابن كثير : وهذه الآية عامة في جميع الأمور ، وذلك أنه إذا حكم الله ورسولُه بشيءٍ فليس لأحدٍ مخالفته ، ولا اختيار لأحدٍ ولا رأي ولا قول[2] ، ولهذا شدَّد النكير فقال ﴿ومن يَعْصِ اللهَ ورسوله فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً﴾ أي ومن يخالف أمر الله وأمر رسوله فقد حاد عن الطريق السوي ، وأخطأ طريق الصواب ، وضلَّ ضلالاً بيناً واضحاً ﴿وإذْ تقول للذي أنعم الله عليه﴾ أي اذكر أيها الرسول وقت قولك للذي أنعم الله عليه بالهداية للإسلام ﴿وأنعمتَ عليه﴾ بالتحرير من العبودية والإعتاق قال المفسرون : هو « زيد بن حارثة » كان من سبي الجاهلية اشترته « خديجة » ووهبته لرسول الله ﷺ فكان مملوكاً عنده ثم أعتقه وتبنَّاه[3] ، وزوَّجه ابنة عمته « زينب بنت جحش » رضي الله عنها ﴿أَمْسِكْ عليكَ زَوْجكَ واتَّقِ اللَّهَ﴾ أي أمسكْ زوجتك زينب في عصمتك ولا تطلِّقها ، واتَّقِ الله في أمرها ﴿وتُخْفي في نفسك ما اللهُ مبديه﴾ أي وتضمر يا محمد في نفسك ما سيظهره الله وهو إرادة الزواج بها[4] قال في التسهيل : الذي أخفاه رسول الله ﷺ أمر جائزٌ مباح لا إثم فيه ولا عتب ، ولكنه خاف أن

---

(١) حاشية الصاوي ٣/ ٢٧٨ . (٢) ابن كثير ٣/ ٩٧ من المختصر (٣) انظر قصة زيد في كتابنا روائع البيان ٢/ ٣٣٤ .

(٤) يتشبث بعض أعداء الإسلام بروايات ضعيفة واهية ، لا زمام لها خطام، للطعن في الرسول الكريم والنيل من مقامه العظيم ، وجدت في بعض كتب التفسير !! من هذه الروايات الباطلة التي تلقفها « المستشرقون » وخبّوا فيها وأوضعوا ، أن الرسول ﷺ رأى « زينب » وهي متزوجة بزيد بن حارثة فأحبَّها ووقعت في قلبه فقال « سبحان مقلب القلوب » فسمعتها زينب فأخبرت بها زيداً ، فأراد أن يطلقها فقال له الرسول ﴿أمسكْ عليك زوجك﴾ حتى نزل القرآن يعاتبه على إخفائه ذلك .. الخ وهذه رواياتٌ باطلة لم يصح فيها شيء كما قال العلامة « أبو بكر بن العربي » رحمه الله ، والآية صريحة في الردِّ على هذا البهتان ، فإن الله سبحانه أخبر بأنه سيظهر ما أخفاه الرسول ﴿وتخفي في نفسك ما اللهُ مبديه﴾ فماذا أظهر الله تعالى ؟ هل أظهر حب الرسول وعشقه لزينب ، أم أن الذي أظهره هو أمره عليه السلام بالزواج بها لحكمة عظيمة جليلة هي إبطال « حكم التبني » الذي كان شائعاً في الجاهلية ولهذا صرح تعالى بذلك وأبداه علناً وجهاراً ﴿فلما قضى زيدٌ منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم﴾ يا قوم اعقلوا وفكروا ، وتفهموا الحق لوجه الحق بلا تلبيس ولا تشويش وتبصروا فيما تقولون فمن غير المعقول أن يعاتب الشخص لأنه لم يجاهر بحبه لزوجة جاره ؟ وحاشا الرسول الطاهر الكريم أن يتعلق قلبه بامرأةٍ هي في عصمة رجل ، وأن يخفي هذا الحب حتى ينزل القرآن يعاتبه على إخفائه ، فإن مثل هذا لا يليق بأي رجل عادي ، فضلاً عن أشرف الخلق عليه أفضل الصلاة والتسليم ، وغاية ما في الأمر ـ كما نقل في البحر ـ عن علي بن الحسين أنه قال : « أعلم الله نبيه ﷺ أن زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها ، فلما أتاه زيد يشكوها إليه وقال له : اتق الله وأمسك عليك زوجك ، عاتبه الله وقال له : أخبرتك أني مزوجكها وتخفي في نفسك ما اللهُ مبديه » !!! انظر رد الفرية في كتابنا النبوة والأنبياء ص ٩٩ .

زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾

يقول الناس تزوج امرأة ابنه إذ كان قد تبناه ، فأخفاه حياءً وحشمة وصيانة لعرضه من ألسنتهم ، فالذي أخفاه ﷺ هو إرادة تزوجها ليبطل حكم التبني فأبدى الله ذلك بأن قضى له بتزوجها ﴿وتخشى الناسَ واللهُ أحقُّ أن تخشاه﴾ أي تهاب أن يقول الناسُ تزوج محمد حليلة ابنه ، واللهُ أحقُّ أن تخشاه وحده ، وأن تجهر بما أوحاه إليك من أنك ستتزوج بها بعد أن يطلقها زيدٌ قال ابن عباس : خشي أن يقول المنافقون : تزوج محمد امرأة ابنه ﴿فلما قضى زيدٌ منها وطراً زوجناكها﴾ أي فلما قضى زيدٌ حاجته من نكاحها وطلَّقها زوجناك إياها يا محمد ، وهذا نصٌ قاطع صريح على أن الذي أخفاه رسول الله ﷺ هو إرادة الزواج بها بعد تطليق زيدٍ لها تنفيذاً لأمر الوحي ، لا حبُّه لها كما زعم الأفَّاكون ، ومعنى ﴿زوجناكها﴾ جعلناها زوجةً لك قال المفسرون : إنَّ الذي تولَّى تزويجها هو الله جل وعلا ، فلما انقضت عدتها دخل عليها رسول الله ﷺ بلا إذنٍ ولا عقدٍ ولا مهرٍ ولا شهود ، وكان ذلك خصوصية للرسول ﷺ روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « كانت زينبُ تفخَر على أزواج النبي ﷺ وتقول : زوَّجكُنَّ أهاليكُنَّ ، وزوَّجني ربي من فوقِ سبع سموات » ثم ذكر تعالى الحكمة من هذا الزواج فقال ﴿لكيلا يكون على المؤمنين حرجٌ في أزواج أدعيائهم إذا قضَوْا منهنَّ وطَراً﴾ أي لئلا يكون في تشريع الله على المؤمنين ضيق ومشقة وتأثم في حق تزوج مطلقات الأبناء من التبني ، إذا لم يبق لأزواجهن حاجة فيهن قال ابن الجوزي : المعنى زوجناك زينب ـ وهي امرأة زيد الذي تبنَّيته ـ لكيلا يُظنَّ أن امرأة المتبنَّى لا يحل نكاحها ﴿وكانَ أمرُ اللّهِ مفعولاً﴾ أي وكان أمر الله لك ، ووحيه إليك بتزوج زينب مقدَّراً محتماً كائناً لا محالة ، ولما نفى الحرج عن المؤمنين ، نفى الحرج عن سيد المرسلين بخصوصه على سبيل التكريم والتشريف فقال ﴿ما كان على النبي من حرجٍ فيما فرض اللهُ له﴾ أي لا حرج ولا إثم ولا عتاب على النبي فيما أباح الله له وقسم من الزوجات قال الضحاك : كان اليهود عابوه بكثرة النكاح ، فردَّ الله عليهم بقوله ﴿سُنَّة اللّهِ في الذين خلوا من قبلُ﴾ أي هذه سنة الله في جميع الأنبياء السابقين حيث وسَّع عليهم فيما أباح لهم ، قال القرطبي : أي سنَّ لمحمد ﷺ في التوسعة عليه في النكاح ، سنة الأنبياء الماضية كداود وسليمان ، فكان لداود مائة امرأة ولسليمان ثلاثمائة امرأة ، عدا السُّريات [1] ﴿وكان أمرُ الله قدَراً مقدوراً﴾ أي قضاءً مقضياً ، وحكماً مقطوعاً به من الأزل ، لا يتغيَّر ولا يتبدَّل ، ثم أثنى تعالى على جميع الأنبياء والمرسلين بقوله ﴿الذين يبلِّغون رسالاتِ اللّهِ﴾ أي هؤلاء الذين أخبرتك عنهم يا محمد ، وجعلتُ لك قدوة بهم ،

(١) القرطبي ١٤/١٩٥ .

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾

هم الذين يبلّغون رسالاتِ الله إلى من أُرسلوا إليه ﴿ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله﴾ أي يخافون الله وحده ولا يخافون أحداً سواه ، فاقتد يا محمد بهم ﴿وكفى بالله حسيباً﴾ أي يكفي أن يكون الله محاسباً على جميع الأعمال والأفعال ، فينبغي أن لا يُخشى غيره ، ثم أبطل تعالى حكم التبني الذي كان شائعاً في الجاهلية فقال ﴿ما كان محمد أبا أحدٍ من رجالكم﴾ قال المفسرون : لما تزوج رسول الله ﷺ زينب قال الناس : إن محمداً قد تزوج امرأة ابنه فنزلت هذه الآية[1] قال الزمخشري : أي لم يكن أبا رجلٍ منكم على الحقيقة ، حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح[2] ﴿ولكنْ رسولَ الله وخاتم النبيّين﴾ أي ولكنّه عليه السلام آخر الأنبياء والمرسلين ، ختم الله به الرسالات السماوية ، فلا نبيٌّ بعده قال ابن عباس : يريد : لو لم أختم به النبيّين لجعلتُ له ولداً يكون بعده نبياً[3] ﴿وكان الله بكل شيء عليماً﴾ أي هو العالم بأقوالكم وأفعالكم ، لا تخفى عليه خافية من أحوالكم ﴿يا أيها الذينَ آمنوا اذكروا اللهَ ذكراً كثيراً﴾ أي اذكروا الله بالتهليل والتحميد ، والتمجيد والتقديس ذكراً كثيراً ، بالليل والنهار ، والسفر والحضر ﴿وسبحوه بُكرةً وأصيلاً﴾ أي وسبحوا ربكم في الصباح والمساء قال العلماء : خصهما بالذكر لأنهما أفضل الأوقات بسبب تنزل الملائكة فيهما[4] ﴿هو الذي يصلي عليكم﴾ أي هو جل وعلا يرحمكم على الدوام ، ويعتني بأمركم ، وبكل ما فيه صلاحكم وفلاحكم ﴿وملائكتُه﴾ أي وملائكتُه يصلون عليكم أيضاً بالدعاء والاستغفار وطلب الرحمة قال ابن كثير : والصلاةُ من الله سبحانه ثناؤه على العبد عند الملائكة ، وقيل : الصلاة من الله الرحمةُ ، ومن الملائكة : الدعاءُ والاستغفار[5] ﴿ليخرجكم من الظلمات إلى النور﴾ أي لينقذكم من الضلالة إلى الهدى ، ومن ظلمات العصيان إلى نور الطاعة والإيمان ﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ أي واسع الرحمة بالمؤمنين ، حيث يقبل القليل من أعمالهم ، ويعفو عن الكثير من ذنوبهم ، لإخلاصهم في إيمانهم ﴿تحيتُهم يومَ يلقونه سلامٌ﴾ أي تحية هؤلاء المؤمنين يوم يلقون ربهم السلامُ والإكرام في الجنة من الملك العلاّم كقوله تعالى ﴿سلامٌ قولاً من ربٍ رحيم﴾ ﴿وأعدَّ لهم أجراً كريماً﴾ أي وهيأ لهم أجراً حسناً وهو الجنة وما فيها من النعيم المقيم قال ابن كثير : والمراد بالأجر الكريم الجنةُ وما فيها من المآكل والمشارب ، والملابس والمساكن ، والملاذّ والمناظر ، مما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر[1] ، ثم لما بيَّن تعالى أنه أخرج المؤمنين من ظلمات

(١) رواه الترمذي عن عائشة . (٢) الكشاف ٣/ ٤٣٠ . (٣) زاد المسير ٦/ ٣٩٣ . (٤) حاشية الصاوي ٣/ ٢٨١ . (٥) ابن كثير المختصر ٣/ ١٠١ .

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾

الكفر والضلال إلى أنوار الهداية والايمان ، عقَّبه بذكر أوصاف السراج المنير الذي أضاء الله به الأكوان فقال ﴿يا أيها النبيُّ إنا أرسلناك شاهداً﴾ أي شاهداً على أمتك وعلى جميع الأمم بأن أنبياءهم قد بلغوهم رسالة ربهم ﴿ومبشراً﴾ أي مبشراً للمؤمنين بجنات النعيم ﴿ونذيراً﴾ أي ومنذراً للكافرين من عذاب الجحيم ﴿وداعياً إلى الله بإذنه﴾ أي وداعياً للخلق إلى توحيد الله وطاعته وعبادته ، بأمره جل وعلا لا من تلقاء نفسك ﴿وسراجاً منيراً﴾ أي وأنت يا محمد كالسراج الوهَّاج المضيء للناس ، يُهْتدى بك في الدهماء ، كما يُهْتدى بالشهاب في الظلماء قال ابن كثير : أي أنت يا محمد كالشمس في إشراقها وإضاءتها لا يجحدها إلا معاند[٢] وقال الزمخشري : شبَّهه بالسراج المنير لأن الله جلى به ظلمات الشركِ ، واهتدى به الضالون ، كما يُجلي ظلامُ الليل بالسراج المنير ويُهْتدى به[٣] ، وصفه تعالى بخمسة أوصاف كلُّها كمالٌ وجمال ، وثناءٌ وجلال ، وختمها بأنه صلوات الله عليه هو السراج الوضاء الذي بدَّد الله به ظلمات الضلال ، فصلواتُ ربي وسلامه عليه في كل حين وآن ﴿وبشر المؤمنين بأنَّ لهم من الله فضلاً كبيراً﴾ أي وبشر يا محمد المؤمنين خاصة بأنَّ لهم من الله العطاء الواسع الكبير في جنات النعيم ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾ أي لا تطعهم فيما يطلبونه منك من المساهلة والملاينة في أمر الدين، بل اثبت على ما أُوحي إليك ﴿وَدَعْ أذاهم﴾ أي ولا تكترث بإذايتهم لك ، وصدّهم الناسَ عنك ﴿وتوكل على الله﴾ أي واعتمد في جميع أمورك وأحوالك على الله ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ أي إن الله يكفي من توكل عليه في أمور الدنيا والآخرة قال الصاوي : وفي الآية إشارة إلى أن التوكل أمره عظيم ، فمن توكل على الله كفاه ما أهمَّه من أمور الدنيا والدين[٤] ، ولما كان الحديث عن نساء النبيﷺ وقصة زيد وتطليقه لزينب ، جاء الحديث عن نساء المؤمنين والطريقة المثلى في تطليقهن فقال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات﴾ أي يا أيها المؤمنون الذين صدَّقوا بالله ورسوله إذا عقدتم عقد الزواج على المؤمنات وتزوجتموهن ﴿ثم طلقتموهن من قبل أن تمسّوهن﴾ أي ثم طلقتموهنَّ من قبل أن تجامعوهنَّ ، وإنما خصَّ المؤمنات بالذكر مع أن الكتابيات يدخلن في الحكم ، للتنبيه على أن الأليق بالمسلم أن يتخيَّر لنطفته ، وألاَّ ينكح إلا مؤمنة عفيفة[٥] ﴿فما لكم عليهن من عدة تعتدونها﴾ أي فليس لكم عليهم حق

(١) ابن كثير ٣/١٠٢ المختصر . (٢) نفس المرجع السابق ٣/١٠٣ . (٣) الكشاف ٣/٤٣٢ . (٤) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٢٨٢ . (٥) انظر الكشاف ٣/٤٣٣ .

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾

في العدة تستوفون عددها عليهن ، لأنكم لم تعاشروهن فليس هناك احتمال للحمل حتى تحتبسوا المرأة من أجل صيانة نسبكم ﴿فمتعوهنَّ﴾ أي فالواجب عليكم إكرامهن بدفع المتعة بما تطيب نفوسكم به من مالٍ أو كسوةٍ ، تطييباً لخاطرهن ، وتخفيفاً لشدة وقع الطلاق عليهن ﴿وسرّحوهنَّ سراحاً جميلاً﴾ أي وخلّوا سبيلهنَّ تخليةً بالمعروف[1] ، من غير إضرار ولا إيذاء ، ولا هضمٍ لحقوقهن قال أبو حيان : والسراحُ الجميلُ هو كلمة طيبة دون أذى ولا منع واجب[2] ، ثم ذكر تعالى ما يتعلق بأحوال زوجات الرسول ﷺ فقال ﴿يا أيها النبيُّ إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيتَ أجورهُنَّ﴾ أي إنا قد أبحنا لك يا محمد أنواعاً من النساء ، توسعة عليك وتيسيراً لك في تبليغ الدعوة ، فمن ذلك أننا أبحنا لك زوجاتك اللاتي تزوجتهن بصداقٍ مُسمّى ، وهُنَّ في عصمتك[3] ﴿وما ملكتْ يمينُكَ مما أفاء اللهُ عليك﴾ أي وأبحنا لك أيضاً النساء اللاتي تملكهن في الحرب بطريق الانتصار على الكفار ، وإنما قيَّدهن بطريق الغنائم لأنهن أفضلُ من اللائي يُملَكن بالشراء ، فقد بذل في إحرازهنَّ جهدٌ ومشقة لم يكن في الصنف الثاني ﴿وبناتِ عمِّك وبنات عماتِكَ وبناتِ خالك وبناتِ خالاتكَ اللاتي هاجرنَ معك﴾ أي وأبحنا لك قريباتك من بنات الأعمام والعمات ، والأخوال والخالات بشرط الهجرة معك ﴿وامرأةً مؤمنةً إنْ وهبَتْ نفسها للنبي﴾ أي وأحللنا لك النساء المؤمناتِ الصالحات اللواتي وهبن أنفسهن لك ، حباً في الله ورسوله وتقرباً لك ﴿إن أراد النبي أن يستنكحها﴾ أي إن أردت يا محمد أن تتزوج من شئت منهن بدون مهر ﴿خالصةً لك من دون المؤمنين﴾ أي خاصة لك يا محمد دون سائر المؤمنين ، فإنه لا يحل لهم التزوج بدون مهر ، ولا تصح الهبة ، بل يجب مهر المثل ﴿قدْ علِمْنا ما فرضْنا عليهم في أزْواجهم وما ملكتْ أيمانُهم﴾ أي قد علمنا ما أوجبنا على المؤمنين من نفقةٍ ، ومهر ، وشهود في العقد ، وعدم تجاوز أربع من النساء ، وما أبحنا لهم من ملك اليمين عدا الحرائر ، وأما أنت فقد خصصناك بخصائص تيسيراً لك ﴿لكيلا يكون عليك حرج﴾ أي لئلا يكون عليك مشقة أو ضيق ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي عظيم المغفرة واسع الرحمة ﴿تُرجي

---

(1) الطبري ٢٢/ ١٤ . (2) البحر المحيط ٧/ ٢٤٠ . (3) هذا أحد قولين للمفسرين ، والآخر أن المراد جميع النساء فقد أباح الله لرسوله ﷺ أن يتزوج كل امرأة يعطيها مهرها ، وهذا أوسع من الأول واختاره القرطبي واستدل بحديث عائشة « ما مات رسول الله ﷺ حتى أحلّ الله له النساء » انظر القرطبي ١٤/ ٢٠٧ .

﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾

من تشاء منهنَّ وتُؤوي إليك من تشاء﴾ أي ولك - أيها النبي - الخيار في أن تطلق من تشاء من زوجاتك ، وتمسك من تشاء منهن[1] ﴿ومن ابتغيتَ ممن عزلت فلا جُناح عليك﴾ أي وإذا أحببتَ أن تؤوي إليك امرأة ممن عزلتَ من القسمة فلا إثم عليك ولا عتب ﴿ذلك أدنى أن تقرَّ أعينُهُنَّ ولا يحْزنَّ ويرْضين بما آتيتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ أي ذلك التخيير الذي خيرناك في أمرهنَّ أقرب أن ترتاح قلوبهن فلا يحزنَّ ، ويرضين بصنيعك ، لأنهن إذا علمن أن هذا أمرٌ من الله ، كان أطيب لأنفسهن فلايشعرن بالحزن والألم ﴿واللهُ يعلم ما في قلوبكم﴾ خطابٌ للنبي على جهة التعظيم أي يعلم ما في قلبك يا محمد وما في قلب كل إنسان ، من عدل أو ميل ، ومن حب أو كراهية ، وإنما خيرناك فيهن تيسيراً عليك فيما أردت ﴿وكان الله عليماً حليماً﴾ أي واسع العلم يعلم جميع ما تظهرون وما تخفون ، حليماً يضع الأمور في نصابها ولا يعاجل بالعقوبة ، بل يؤخر ويمهل لكنه لا يُهْمل ، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت « كنتُ أغار من اللاتي وهبن أنفسهن للنبيﷺ وأقول : أتهبُ المرأة نفسها ؟ فلما نزلت ﴿تُرجي من تشاء منهنَّ وتُؤوي إليكَ من تشاءُ ، ومن ابتغيتَ ممن عزلتَ فلا جُناح عليك﴾ قلت : ما أرى ربك إلا يسارع في هواك » ثم قال تعالى ﴿لا يحلُّ لكَ النساء من بعدُ﴾ أي لا يحل لك أيها النبي النساء من بعد هؤلاء التسع اللاتي في عصمتك ﴿ولا أنْ تبدَّل بهنَّ من أزواج﴾ أي ولا يحل لك أن تطلّق واحدة منهن وتنكح مكانها أُخرى ﴿ولو أعجبك حسنهنَّ﴾ أي ولو أعجبك جمال غيرهن من النساء ﴿إلا ما ملكت يمينك﴾ أي إلا ما كان من الجواري والإماء فلا بأس في ذلك لأنهن لسن زوجات ﴿وكان الله على كل شيء رقيباً﴾ أي مطلعاً على أعمالكم شاهداً عليها ، وفيه تحذير من مجاوزة حدوده ، وتخطي حلاله وحرامه . قال المفسرون : أباح الله لرسوله أصنافاً أربعة « الممهورات ، المملوكات ، المهاجرات ، الواهبات أنفسهن » توسعة عليهﷺ وتيسيراً له في نشر الرسالة وتبليغ الدعوة ، ولما نزلت آية التخيير ﴿قل لأزواجك إن كنتُنَّ تُردن الحياة الدنيا . .﴾ الآية وخيَّرهن عليه السلام ، واخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، أكرمهن الله تعالى بأن قصره عليهن ، وحرَّم عليه أن يتزوج بغيرهن .

البَـلاَغَـة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

---

(١) هذا قول ابن عباس ، وقال مجاهد والضحاك تقسم لمن شئت وتؤخر عنك من شئت ، وتقلل لمن شئت وتكثر لمن شئت ، لا حرج عليك في ذلك ، كذا في البحر ٧/٢٤٧ .

١ ـ التنكير لإفادة العموم ﴿وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنة﴾ لأن النكرة في سياق النفي تفيد العموم ، أي ليس لواحدٍ منهم أن يريد غير ما أراده الله ورسوله .

٢ ـ الطباق بين ﴿تخفي . . ومبديه﴾ وبين ﴿الظلمات . . والنور﴾ وبين ﴿مبشراً . . ونذيراً﴾ وهو من المحسنات البديعية .

٣ ـ جناس الاشتقاق ﴿قَدراً مقدوراً﴾ .

٤ ـ طباق السلب ﴿ويخشونه ولا يخشون أحداً﴾ .

٥ ـ التشبيه البليغ ﴿وسراجاً منيراً﴾ أصل التشبيه : أنت يا محمد كالسراج الوضاء في الهداية والإرشاد، حذفت منه أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً على حد قولهم : عليٌ أسدٌ ، ومحمدٌ قمر .

٦ ـ الكناية ﴿من قبل أن تمسوهن﴾ كنَّى عن الجماع بالمسِّ وهي من الكنايات المشهورة ، ومن الآداب القرآنية الحميدة لأن القرآن يتحاشى الألفاظ البذيئة .

٧ ـ الطباق بين ﴿بكرةً . . وأصيلاً﴾ وبين ﴿تُرجي . . وتؤوي﴾ وبين ﴿ابتغيت . . وعزلت﴾ .

٨ ـ توافق الفواصل ممّا يزيد في الجمال والإيقاع على السمع مثل ﴿مبشراً ونذيراً . . وسراجاً منيراً﴾ ومثل ﴿سراحاً جميلاً . . عليماً حليماً . . غفوراً رحيماً﴾ وهذا من خصائص القرآن العظيم ، وهو من المحسنات البديعية .

* * *

قال الله تعالى :﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي . . إلى . . وكان الله غفوراً رحيماً﴾ من آية (٥٣) إلى آية (٧٣) نهاية السورة .

المناسَبَة : لمّا ذكر تعالى أحوال النبيﷺ مع أزواجه ، ذكر هنا الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها المؤمنون عند دخلوهم بيوت النبيﷺ من الاستئذان وعدم الإثقال ، ثم بيَّن شرف الرسول بصلاة الله والملائكة عليه ، وختم السورة الكريمة بالحديث عن الساعة وما يعقبها من أهوالٍ لأهل الكفر والضلال ، وحال الأشقياء والسعداء في دار البقاء .

اللغَة : ﴿إناه﴾ نضجه قال في اللسان : إنَى الشيء بلوغه وإدراكه والإنى بكسر الهمزة والقصر : النضجُ[1] ﴿مستأنسين﴾ الاستئناس : طلبُ الأنس بالحديث ، تقول استأنست بحديثه أي طلبت الأنس والسرور به ، وما بالدار من أنيس أي ليس بها أحد يؤانسك أو يسليك ﴿متاعاً﴾ المتاعُ : الغرض والحاجة كالماعون وغيره ﴿بهتاناً﴾ البهتانُ : الافتراء والكذب الواضح ، وأصله من البهت وهو

(١) انظر لسان العرب .

القذف بالباطل[١] ﴿جلابيبهن﴾ جمع جلباب وهو الثوب الذي يستر جميع البدن وهو يشبه الملاءة « الملحفة » في زماننا، قال الشاعر :

تمشي النسورُ إليه وهي لاهيةٌ مشيَ العَذارى عليهنَّ الجلابيب[٢]

﴿المرجفون﴾ جمع مرجف وهو الذي يشيع الكذب والباطل لإخافة الناس به قال الشاعر :

وإنّا وإن عيرتمونا بقتله وأرجف بالإسلام باغٍ وحاسد[٣]

﴿نغرينَّك﴾ أغراه به : حثه وسلّطه عليه ﴿سعيراً﴾ ناراً شديدة الاستعار .

سَبَبُ النّزول : أ ـ روي عن أنس أن النبيﷺ لما تزوَّج « زينب بنت جحش » أولمَ عليها ، فدعا الناس فلما طعموا جلس طوائف منهم يتحدثون في بيت رسول اللهﷺ وزوجتُه مولّيةٌ وجهها إلى الحائط ، فثقُلوا على رسول اللهﷺ قال أنس : فما أدري أأنا أخبرت النبيﷺ أن القوم قد خرجوا أو أخبرني ، قال فانطلق حتى دخل البيتَ فذهبتُ أدخلُ معه فألقى الستر بيني وبينه ونزل الحجابُ ، ووُعظ الناسُ بما وُعظوا به وأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم ..﴾[٤] .

ب ـ وقال ابن عباس : كان ناسٌ من المؤمنين يتحيَّنون طعام النبيﷺ فيدخلون قبل أن يُدرك الطعام ، ويقعدون إلى أن يُدرك ، ثم يأكلون ولا يخرجون فنزلت[٥] .

ج ـ وعن عائشة أنَّ عمر رضي الله عنه قال يا رسول الله : إنَّ نساءكَ يدخلُ عليهنَّ البرُّ والفاجرُ ، فلو أمرتهنَّ أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب ﴿وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ..﴾[٦] الآية .

د ـ عن السُّدّي أن الفُسَّاق كانوا يؤذون النساء إذا خرجن بالليل ، فإذا رأوا المرأة عليها قناع تركوها وقالوا : هذه حرة ، وإذا رأوها بغير قناع قالوا : أمةٌ فآذوها فأنزل الله ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ..﴾[٧] الآية .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ

التفسير : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يُؤذن لكم﴾ الإضافة للتشريف والتكريم ، والآية توجيه للمؤمنين لهذا الأدب السامي العظيم والمعنى لا تدخلوا بيوت النبي في حالٍ من الأحوال إلا في حال الإذن لكم منه عليه السلام ، مراعاةً لحقوق نسائه ، وحرصاً على عدم إيذائه والإثقال

(١) المصباح المنير ١/ ٧١ . (٢) لسان العرب لابن منظور . (٣) القرطبي ١٤/ ٢٤٦ . (٤) القرطبي ١٤/ ٢٢٤ وانظر كمال القصة في الصحيحين ، وفيها معجزة لرسول اللهﷺ باهرة . (٥) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ١٤٢ قال ابن جري : والقول الأول المنقول عن أنس أشهر ، وقول ابن عباس بما في الآية من النهي عن الدخول حتى يؤذن لهم . (٦) أخرجه البخاري . (٧) زاد المسير لابن الجوزي ٦/ ٤٢٢ .

فَادْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ

عليه ﴿إلى طعام غيرَ ناظرينَ إناهُ﴾ أي إلاّ حين يدعوكم إلى طعام غير منتظرين نُضْجه ﴿ولكن إذا دُعيتم فادخلوا﴾ أي ولكنْ إذا دُعيتم وأُذن لكم في الدخول فادخلوا ﴿فإذا طعِمْتُم فانتشروا﴾ أي فإذا انتهيتم من الطعام فتفرقوا إلى دوركم ولا تمكثوا ﴿ولا مستأنسين لحديث﴾ معطوف على « غير ناظرين » أي لا تدخلوا بيوته منتظرين للطعام ، ولا مستأنسين لحديث بعضكم بعضاً قال أبو حيان : نهُوا أن يطيلوا الجلوسَ يستأنس بعضهم ببعض لحديثٍ يحدثه به[1] ﴿إنَّ ذلكُمْ كانَ يُؤْذِي النبيَ﴾ أي إن صنيعكم هذا يؤذي الرسول ، ويضايقه ويثقل عليه ، ويمنعه من قضاءِ كثيرٍ من مصالحه وأموره ﴿فيَسْتَحْيِي منكم﴾ أي فيستحي من إخراجكم ، ويمنعه حياؤه أن يأمركم بالانصراف ، لخُلقه الرفيع ، وقلبه الرحيم ﴿واللهُ لا يَسْتَحْيِي من الحقِّ﴾ أي واللهُ جل وعلا لا يترك بيان الحق ، ولا يمنعه مانع من إظهار الحق وتبيانه لكم قال القرطبي : هذا أدبٌ أدَّب الله به الثقلاء ، وفي كتاب الثعلبي : حسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم[2] ﴿وإذا سألتموهُنَّ متاعاً فاسألوهنَّ من وراء حجاب﴾ أي وإذا أردتم حاجةً من أزواجه الطاهرات فاطلبوه من وراء حاجزٍ وحجاب ﴿ذلكم أطهرُ لقلوبكم وقلوبهنَّ﴾ أي سؤالكم إياهنَّ المتاع من وراء حجاب أزكى لقلوبكم وقلوبهن وأطهر ، وأنفى للريبة وسوء الظن ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسولَ اللّهِ﴾ أي وما ينبغي لكم ولا يليق بكم أن تؤذوا رسولكم الذي هداكم الله به في حياته ﴿ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً﴾ أي ولا أن تتزوجوا زوجاته من بعد وفاته أبداً ، لأنهن كالأمهات لكم ، وهو كالوالد فهل يليق بكم أن تؤذوه في نفسه أو أهله ؟ ﴿إن ذلكم كان عند الله عظيماً﴾ أي إن إيذاءه ونكاح أزواجه من بعده أمر عظيم ، وذنب كبير لا يغفره الله لكم قال أبو السعود : وفيه من تعظيمه تعالى لشأن رسوله ﷺ وإيجاب حرمته حياً وميتاً ما لا يخفى[3] ثم قال تعالى ﴿إن تُبدوا شيئاً أوتُخْفُوه﴾ أي إن تظهروا أمراً من الأمور أو تخفوه في صدوركم ﴿فإنَّ اللهَ كان به عليماً﴾ أي فإن الله عالم به وسيجازيكم عليه قال البيضاوي : وفي هذا التعميم مع البرهان على المقصود مزيد تهويلٍ ومبالغة في الوعيد[4] ، ثم لما أنزل تعالى الحجاب استثنى المحارم فقال ﴿لا جُناح عليهنَّ في آبائهنَّ ولا أبنائهنَّ ولا إخوانهنَّ ولا أبناء

(١) البحر المحيط ٧/٢٤٧ . (٢) تفسير القرطبي ١٤/٢٢٤ . (٣) أبو السعود ٤/٢١٨ . (٤) البيضاوي ٢/١٢٠ .

﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾

إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهـنَّ ولا ما ملكتْ أيمانهُـنَّ﴾ أي لا حرج ولا إثـم على النسـاء في ترك الحجاب أمام المحارم من الرجال قال القرطبي : لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء لرسول الله ﷺ : ونحنُ أيضاً نكلمهـنَّ من وراء حجاب ؟ فنزلت هذه الآية[١] ، والمراد بـ ﴿نسائهـن﴾ نساءُ المؤمنين قال ابن عباس ، لأن نساء اليهود والنصارى يصفن لأزواجهن النساء المسلمات ، فلا يحل للمسلمة أن تُبدي شيئاً منها لئلا تصفها لزوجها الكافر[٢] ﴿واتقيـنَ اللّـه﴾ أي اتَّقين يا معشر النساء اللّهَ ، واخشينه في الخلوة والعلانية ﴿إن اللهَ كـان على كل شيء شهيـداً﴾ أي لا تخفى عليه خافية من أموركن ، يعلـم خطـرات القلوب كما يعلم حركات الجوارح قال الرازي : وهذا في غاية الحسن في هذا الموضع ، لأن ما سبق إشارة إلى جواز الخلوة بهم والتكشف لهم ، فختمها بأن الله شاهد عند اختلاء بعضهم ببعض ، فالخلوة عنده مثل الجلوة فعليهم أن يتقوا الله[٣] ، ثم بيَّـن تعالى قدر الرسول العظيم فقال ﴿إنَّ اللـهَ وملائكته يصلُّـون علـى النبي﴾ أي إن الله جل وعلا يرحم نبيَّه ، ويعظِّم شأنه ، ويرفع مقامه ، وملائكتُه الأبرار يدعون للنبي ويستغفرون له ، ويطلبون من الله أن يمجِّد عبده ورسوله ويُنيلـه أعلى المراتـب قال القرطبـي : والصلاةُ من الله رحمتُه ورضوانه ، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار ، ومن الأمة الدعاءُ والتعظيمُ لأمره[٤] وقال الصاوي : وهذه الآية فيها أعظم الدليل على أنه ﷺ مهبط الرحمات ، وأفضل الأولين والآخرين على الإطلاق ، إذ الصلاة من الله على نبيه رحمتُه المقرونة بالتعظيم ، ومن اللّهِ على غير النبي مطلقُ الرحمة كقوله ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكتُه﴾ فانظر الفرق بين الصلاتين ، والفضل بين المقامين ، وبذلك صار منبع الرحمات ، ومنبعَ التجليات[٥] ﴿يـا أيهـا الذيـن آمنـوا صلوا عليه وسلّمـوا تسليمـاً﴾ أي فأنتم أيها المؤمنون أكثروا من الصلاة عليه والتسليم ، فحقه عليكم عظيم ، فقد كان المنقذ لكم من الضلالة إلى الهدى ، والمخرج لكم من الظلمات إلى النور ، فقولوا كلما ذُكر اسمه الشريف « اللهم صلِّ على محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً » عن كعب بن عُجرة قلنا يا رسول الله : قد عرفنا التسليم عليك فكيف الصلاة عليك؟ فقال : قولوا اللهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم . . »[٦] الحديث قال الصاوي : وحكمةُ صلاةِ الملائكة والمؤمنين على النبي ﷺ تشريفُهم بذلك ، حيث اقتدوا بالله جل وعلا في الصلاة عليه وتعظيمه ، ومكافأةٌ لبعض حقوقه على الخلق ، لأنه الواسطة العظمى في كل نعمةٍ وصلت لهم ، وحقٌّ على من وصل له نعمة من شخص أن يكافئه ، ولما كان الخلق عاجزين عن مكافأته ﷺ طلبوا من القادر الملك أن يكافئه ، وهذا هو السر في قولهم « اللهم صل على محمد »[٧] ﴿إن الذيـن يُؤذون اللّـهَ ورسوله﴾ أي يؤذونَ الله بالكفر ونسبة الصاحبة والولد له ، ووصفه بما لا يليق به جل وعلا كقول اليهود ﴿يـدُ اللهِ

---

(١) القرطبي ١٤/٢٣١ . (٢) انظر حاشية الصاوي ٣/٢٨٧ . (٣) التفسير الكبير ٢٥/٢٢٧ . (٤) القرطبي ١٤/٢٣٢ .
(٥) حاشية الصاوي ٣/٢٨٧ . (٦) و(٧) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٢٨٧ .

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ﴾

مغلولة﴾ وقول النصارى « المسيحُ بنُ الله » ويؤذون الرسول بالتكذيب برسالته ، والطعن في شريعته ، والاستهزاء بدعوته قال ابن عباس : نزلت في الذين طعنوا على الرسول ﷺ حين اتخذ صفية بنت حُيي[1] ﴿لعنهم الله في الدنيا والآخرة﴾ أي طردهم من رحمته ، وأحل عليهم سخطه وغضبه في الدنيا بالهوان والصغار ، وفي الآخرة بالخلود في عذاب النار ﴿وأعدَّ لهم عذاباً مهيناً﴾ أي وهيأ لهم عذاباً شديداً ، بالغَ الغاية في الإهانة والتحقير ﴿والذين يؤذونَ المؤمنينَ والمؤمناتِ بغيرِ ما اكتسبوا﴾ أي يؤذون أهل الإيمان بغير ما فعلوه ، وبغير جنايةٍ واستحقاقٍ للأذى ﴿فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ أي فقد حمَّلوا أنفسهم البهتان والكذب ، والزور ، والذنب الواضح الجلي قال القرطبي : أطلق إيذاء الله ورسوله ، وقيَّد إيذاء المؤمنين والمؤمنات ، لأن إيذاء الله ورسوله لا يكون إلا بغير حق أبداً ، وأما إيذاء المؤمنين والمؤمنات فمنه ومنه[2] ولما حرَّم تعالى الإيذاء ، أمر نبيه الكريم أن يوجه النداء إلى الأمة جمعاء ، للتمسك بالإسلام وتعاليمه الرشيدة ، وبالأخص في أمرٍ اجتماعي خطير وهو « الحجاب » الذي يصون للمرأة كرامتها ، ويحفظ عليها عفافها ، ويحميها من النظرات الجارحة ، والكلمات اللاذعة ، والنوايا الخبيثة لئلا تتعرض لأذى الفساق فقال ﴿يا أيها النبيُّ قُلْ لأزواجِكَ وبناتِكَ ونساءِ المؤمنين يُدْنِينَ عليهنَّ من جلابيبهنَّ﴾ أي قل يا محمد لزوجاتك الطاهرات ـ أمهات المؤمنين ـ وبناتك الفضليات الكريمات ، وسائر نساء المؤمنين ، قل لهنَّ يلبسن الجلباب الواسع ، الذي يستر محاسنهن وزينتهن ، ويدفع عنهن ألسنة السوء ، ويميزهن عن صفاتِ نساء الجاهلية ، روى الطبري : عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية : أمر اللهُ نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رءوسهن بالجلابيب ويبدين عيناً واحدة[3] ، وروى ابن كثير عن محمد بن سيرين قال : سألت عبيدة السلماني عن قول الله عز وجل ﴿يُدنين عليهنَّ من جلابيبهنَّ﴾ فغطّى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى[4] ﴿ذلك أدنى أن يُعرفن فلا يُؤذين﴾ أي ذلك التستر أقرب بأن يُعْرفن بالعفة والتستر والصيانة ، فلا يطمع فيهن أهل السوء والفساد ، وقيل : أقرب بأن يُعرفن أنهن حرائر ، ويتميزن عن الإماء ، ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي إنه تعالى غفور لما سلف منهن من تفريط ، رحيم بالعباد حيث راعى مصالحهم وشئونهم تلك الجزئيات . . ثم هدَّد المولى جل وعلا كل المؤذين من جميع الأصناف بأنواع العقاب فقال ﴿لئن لم ينته المنافقون والذينَ في قلوبهم مرض﴾ أي لئن

(١) زاد المسير ٦/ ٤٢٠ . (٢) القرطبي ١٤/ ٢٣٨ . (٣) هذا النص عن ابن عباس صريح في وجوب ستر الوجه ، وكذا رواية ابن كثير عن محمد ابن سيرين ، وغيرهما من الروايات الصحيحة والصريحة بوجوب ستر المرأة للوجه ، فأين أقوال السلف الصالح وأئمة علماء التفسير الأجلاء ، من أقوال أدعياء العلم في هذا العصر والزمان ، الذين يبيحون للمرأة أن تكشف وجهها أمام الأجانب !! وانظر أقوال المفسرين في كتابنا « روائع البيان » ٢/ ٣٨٢ . (٤) ابن كثير ٣/ ١١٤ .

لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾

لم يترك هؤلاء المنافقون - الذين يُظهرون الإيمان ويبطنون الكفر - نفاقهم، والزناةُ - الذين في قلوبهم مرض فجور - فجورهم ﴿والمرجفون في المدينة﴾ أي الذين ينشرون الأراجيف والأكاذيب لبلبلة الأفكار، وخلخلة الصفوف ، ونشر أخبار السوء ﴿لنغرينَّك بهم﴾ أي لنسلطنك عليهم يا محمد ﴿ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً﴾ أي ثم يخرجون من المدينة فلا يعودون إلى مجاورتك فيها إلا زمناً قليلاً ، ريثما يتأهبوا للخروج قال الرازي : وعد الله نبيه أن يخرج أعداءه من المدينة وينفيهم على يده ، إظهاراً لشوكته[1] ﴿ملعونين﴾ أي مبعدين عن رحمته تعالى ﴿أينما ثُقفوا أُخذوا وقُتلوا تقتيلاً﴾ أي أينما وجدوا وأُدركوا أُخذوا على وجه الغلبة والقهر ثم قُتّلوا لكفرهم بالله تقتيلاً ﴿سُنَّةَ اللهِ في الذين خلوا من قبلُ﴾ أي هذه سنة الله في المنافقين وعادتُه فيمن سبق منهم أن يُفعل بهم ذلك قال القرطبي : أي سنَّ الله عز وجل فيمن أرجف بالأنبياء وأظهر نفاقه أن يُؤخذ ويُقتل[2] ﴿ولن تجد لسُنَّةِ اللهِ تبديلاً﴾ أي ولن تتغير أو تتبدل سنة الله ، لكونها بُنيت على أساسٍ متين ، قال الصاوي : وفي الآية تسلية للنبيﷺ أي فلا تحزن على وجود المنافقين يا محمد ، فإن ذلك سنة قديمة لم يخل منهم زمن من الأزمان[3] ثم ذكر تعالى الساعة وأهوالها فقال ﴿يسألك الناسُ عن الساعةِ﴾ أي يسألك يا محمد المشركون على سبيل الاستهزاء والسخرية عن وقت قيام الساعة ﴿قل إنما علمها عندَ اللهِ﴾ أي قل لهم : لست أعرف وقتها وإنما يعلم ذلك علاّم الغيوب ، فإن الله أخفاها لحكمة ولم يُطلع عليها مَلَكاً مقرباً ، ولا نبياً مرسلاً ﴿وما يُدريك لعل الساعةَ تكون قريباً﴾ أي وما يُعلمك أن الساعة تكون في وقت قريب ؟ قال أبو السعود : وفيه تهديدٌ للمستعجلين ، وتبكيتٌ للمتعنِّتين ، والإظهارُ في موضع الإضمار للتهويل وزيادة التقرير[4] ﴿إنَّ الله لعن الكافرين﴾ أي طرد الكافرين وأبعدهم عن رحمته ﴿وأعدَّ لهم سعيراً﴾ أي وهيأ لهم ناراً شديدة مستعرة ﴿خالدين فيها أبداً﴾ أي مقيمين في السعير أبد الآبدين ﴿لا يجدون ولياً ولا نصيراً﴾ أي لا يجدون لهم من ينجيهم وينقذهم من عذاب الله ﴿يومَ تُقلَّبُ وجوههم في النار﴾ أي يوم تتقلب وجوههم من جهة إلى جهة كاللحم يُشوى بالنار ﴿يقولون يا ليتنا أطعنا اللهَ وأطعنا الرسولا﴾ أي يقولون متحسرين على ما فاتهم في

(١) التفسير الكبير ٢٥/٢٣١ . (٢) القرطبي ١٤/٢٤٧ . (٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٢٨٨ .
(٤) تفسير أبي السعود ٤/٢٢٠ .

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ۝ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ۚ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝﴾

يا ليتنا أطعنا الله ورسوله حتى لا نبتلى بهذا العذاب المهين **﴿وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا﴾** أي أطعنا القادة والأشراف فينا فأضلونا طريق الهدى والإيمان **﴿ربنا آتهم ضعفين من العذاب﴾** أي اجعل عذابهم ضعفي عذابنا ، لأنهم كانوا سبب ضلالنا **﴿والعنهم لعناً كبيراً﴾** أي والعنهم أشد أنواع اللعن وأعظمه ، ثم حذر تعالى من إيذاء الرسول كما آذى اليهود نبيهم فقال **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا﴾** أي لا تكونوا أمثال بني إسرائيل الذين آذوا نبيهم موسى واتهموه ببرص في جسمه أو أُدْرةٍ لفرط تستره وحيائه ، فأظهر الله براءته وأكذبهم فيما اتهموه به روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (إنَّ موسى كان رجلاً حيياً ستّيراً ، لا يُرى من جلده شيء استحياء منه ، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا : ما يتستر هذا التستر إلا من عيب بجلده ، إمّا برص وإما أُدرة ـ انتفاخ الخصية ـ وإما آفة ، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى ، فخلا يوماً وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها وإن الحجَر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول : ثوبي حجر ، ثوبي حجر ، حتى مرَّ على ملأ من بني إسرائيل فرأوه أحسنَ ما خلق الله عرياناً ، وأبرأه مما يقولون) الحديث[1] **﴿وكان عند الله وجيهاً﴾** أي وكان موسى ذا وجاهة ورفعة ومكانة عند ربه قال ابن كثير : أي له وجاهة وجاه عند ربه ، لم يسأل شيئاً إلا أعطاه[2] **﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللهَ وقولوا قولاً سديداً﴾** أي راقبوا الله في جميع أقوالكم وأفعالكم ، وقولوا قولاً مستقيماً مرضياً لله قال الطبري : أي قولاً قاصداً غير جائر ، حقاً غير باطل[3] **﴿يُصلحْ لكم أعمالكم﴾** أي يوفقكم لصالح الأعمال ويتقبلها منكم قال ابن عباس : يتقبل حسناتكم **﴿ويغفر لكم ذنوبكم﴾** أي يمحو عنكم الذنوب والأوزار **﴿ومن يطع اللهَ ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾** أي ومن أطاع الله والرسول فقد نال غاية مطلوبه ، ثم لما أرشدهم إلى مكارم الأخلاق ، نبّههم على قدر التكاليف الشرعية التي كلّف الله بها البشرية فقال **﴿إنَّا عَرَضْنا الأمانة على السَّموات والأرض والجبال فأبيْنَ أنْ يحْمِلْنها وأشفَقْنَ منها﴾** أي عرضنا الفرائض والتكاليف الشرعية على السموات والأرض والجبال الراسيات فأعرضن عن حملها وخفن من ثقلها وشدتها ، والغرض تصوير عظم الأمانة وثقل حملها قال أبو السعود : والمعنى أن

(١) البخاري ٣١٢/٦ وانظر ابن كثير ١١٦/٣ من المختصر . (٢) مختصر ابن كثير ١١٦/٣ . (٣) الطبري ٣٨/٢٢ .

﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾

تلك الأمانة في عظم الشأن بحيث لو كلفت هاتيك الأجرام العظام ـ التي هي مثل في القوة والشدة ـ وكانت ذا شعور وإدراك على مراعاتها لأبين قبولها وأشفقن منها[1] وقال ابن جزي : الأمانةُ هي التكاليف الشرعية من التزام الطاعات ، وترك المعاصي ، وقيل : هي الأمانةُ في الأموال ، والصحيحُ العموم في التكاليف ، وعرضُها يحتمل وجهين أحدهما : أن يكون اللهُ خلق لها إدراكاً فعرضت عليها الأمانة حقيقةً فأشفقت منها وامتنعت من حملها ، والثاني : أن يكون المراد تعظيم شأن الأمانة وأنها من الثقل بحيث لو عُرضت على السموات والأرض والجبال ، لأبين من حملها وأشفقن منها ، فهذا ضربٌ من المجاز كقولك : عرضتُ الحمل العظيم على الدابة فأبتْ أن تحمله ، والمراد أنها لا تقدر على حمله[2] ﴿وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ أي وتحمَّلها الإنسان إنه كان شديد الظلم لنفسه ، مبالغاً في الجهل بعواقب الأمور قال ابن الجوزي : لم يرد بقوله ﴿أبين﴾ المخالفة ، وإنما أبين للخشية والمخافة ، لأن العَرض كان تخييراً لا إلزاماً[3] ﴿ليعذب الله المنافقين والمنافقات ، والمشركين والمشركات﴾ قال ابن كثير : أي إنما حمَّل بني آدم الأمانة وهي التكاليف ليعذب الله المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ، والمشركين الذين ظاهرهم وباطنهم على الكفر ﴿ويتوبَ اللهُ على المؤمنين والمؤمنات﴾ أي ويرحم أهل الإيمان ، ويعود عليهم بالتوبة والمغفرة والرضوان ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي واسع المغفرة للمؤمنين حيث عفا عما سلف منهم ، رحيماً بهم حيث أثابهم وأكرمهم بأنواع الكرامات .

البَلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ الإضافة للتشريف ﴿لا تدخلوا بيوت النبي﴾ لأنها لما نسبت للنبي تشرفت .

٢ ـ الطباق بين ﴿ادخلوا . . وانتشروا﴾ وبين ﴿تبدوا . . وتخفوا﴾ وبين ﴿ثُقفوا . . وأخذوا﴾ .

٣ ـ طباق السلب ﴿فيستحيي منكم ، واللهُ لا يستحي من الحق﴾ .

٤ ـ ذكر الخاص بعد العام ﴿لئن لم ينته المنافقون . . والمرجفون﴾ والمرجفون هم من المنافقين ، فعمَّم ثم خصَّص زيادة في التقبيح والتشنيع عليهم .

٥ ـ ذكر اللفظ بصيغة « فعول » و « فعيل » للمبالغة مثل ﴿إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ ﴿بكل شيء عليماً﴾ ﴿على كل شيء شهيداً﴾ الخ .

٦ ـ الإتيان بالمصدر مع الفعل للتأكيد ﴿وقُتلوا تقتيلاً﴾ ﴿وسلّموا تسليماً﴾ .

---

(١) أبو السعود ٤/٢٢١ . (٢) التسهيل في علوم التنزيل ٣/١٤٥ . (٣) زادالمسير ٦/٤٢٨ .

٧ ـ التحسر والتفجع بطريق التمني ﴿يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا﴾ .

٨ ـ التشبيه ﴿لا تكونوا كالذين آذوا موسى﴾ ويسمى التشبيه المرسل المجمل .

٩ ـ الاستعارة التمثيلية ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال﴾ مثَّل للأمانة في ضخامتها وعظمها وتفخيم شأنها بأنها من الثقل بحيث لو عرضت على السموات والأرض والجبال وهي من القوة والشدة بأعلى المنازل لأبت عن حملها وأشفقت منها ، وهو تمثيل رائع لتهويل شأن الأمانة .

١٠ ـ المقابلة اللطيفة بين ﴿ليعذب الله المنافقين والمنافقات﴾ وبين ﴿ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات﴾ وفي ختم السورة بهذه الآية من البدائع ما يسميه علماء البديع « رد العجز على الصدر » لأن بدء السورة كان في ذم المنافقين ، وختامها كان في بيان سوء عاقبة المنافقين ، فحسن الكلام في البدء والختام .

١١ ـ الثناء على الرسول ﴿إنَّ الله وملائكته يصلون﴾ ورد بهذه الصيغة وفيه دقائق بيانية :

أ ـ جاء الخبر مؤكداً بـ « إنَّ » اهتماماً به .

ب ـ وجيء بالجملة إسمية لإفادة الدوام .

ج ـ وكانت الجملة إسمية في صدرها « إن الله » فعلية في عجزها « يصلون » للإشارة إلى أن هذا الثناء من الله تعالى على رسوله يتجدد وقتاً فوقتاً على الدوام ، فتدبر هذا السر الدقيق .

١٢ ـ مراعاة الفواصل لما له من الوقع الحسن على السمع مثل ﴿أعدَّ لهم سعيراً . . لا يجدون لهم ولياً ولا نصيراً . . والعنهم لعناً كبيراً﴾ الخ وهو من المحسنات البديعية .

لطيفة : أشارت الآية الكريمة ﴿قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين﴾ إلى لطيفة وهي أن الدعوة لا تثمر إلا إذا بدأ الداعي بها في نفسه وأهله ، وهذا هو السر في البدء بالحجاب الشرعي بنساء الرسول وبناته .

« الردُّ على من أباح كشف الوجه ، وطائفة من أقوال المفسرين في وجوب ستره »

١ ـ قال ابن كثير : أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن لحاجة أن يغطين وجوههن من فوق رءوسهن بالجلابيب .

٢ ـ وقال ابن الجوزي : في قوله تعالى ﴿يدنين عليهن من جلابيبهن﴾ أي يغطين رءوسهن ووجوههن ليعلم أنهن حرائر .

٣ ـ وقال أبو السعود : ومعنى الآية أي يغطين بها وجوههن وأبدانهن إذا برزن لداعية من الدواعي .

٤ ـ وقال الطبري : أي لا تتشبهن بالإماء في لباسهن إذا خرجن لحاجتهن فكشفن شعورهن ووجوههن لئلا يعرض لهن فاسق .

٥ ـ وقال في البحر : والمراد بقوله ﴿عليهن﴾ أي على وجوههن ، لأن الذي كان يبدو منهن في الجاهلية هو الوجه .

٦ ـ وقال الجصاص : وفي الآية دلالة على أن المرأة الشابة مأمورة بستر وجهها عن الأجانب لئلا يطمع فيها أهل الريب . فهذه جملة من أقوال أئمة التفسير في وجوب ستر وجه المرأة ، والله يقول الحق ويهدي السبيل[1] .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الأحزاب »

***

طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير

مَعَالي السيّد حَسَن عَبّاس الشربتلي

وَجَعَلَهُ وَقْفًا لِله تَعَالى

يُوزع مجانًا ولا يُباع

(١) انظر شروط الحجاب الشرعي وكيفيته والحكمة التشريعية منه في كتابنا « روائع البيان في تفسير آيات الأحكام من القرآن » ٢/ ٣٨٧ .

طُبِعَ على نفقة المحسن الكبير

معالي السيد حسن عباس الشربتلي

وجعله وقفاً لله تعالى

يوزع مجاناً ولا يباع